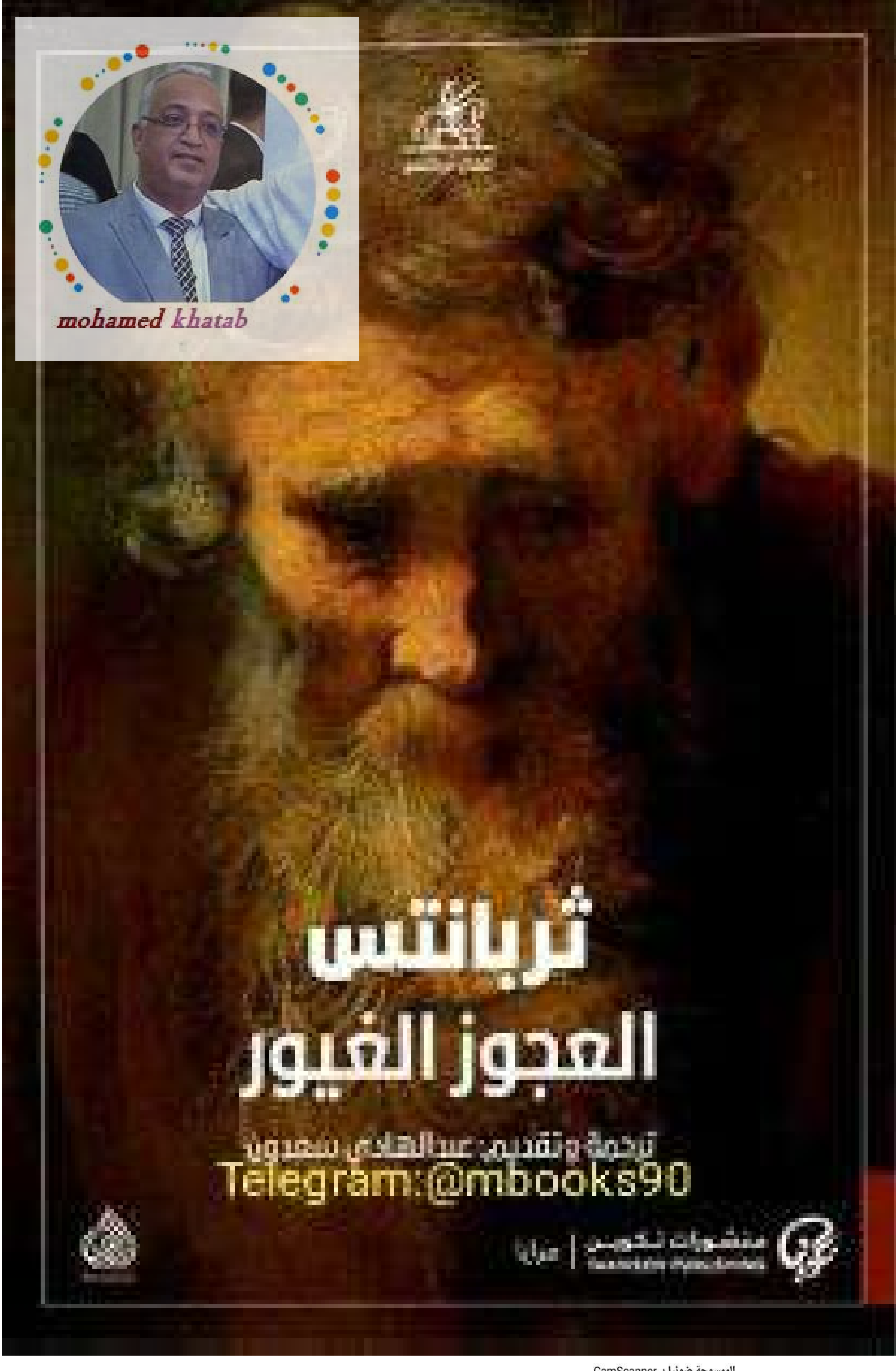

mohamed khatab
ثربانتس
العجوز الغيور
ترجمة وتقديم: عبدالهادي سعدون
Telegram:@mbooks90
منشورات تكوين

تقديم

ثربانتس والروايات القصيرة

كتب ميغيل دي ثربانتس الروايات المثالية (Las Novelas Ejemplares) الاثنتي عشرة بعد انتهائه من الجزء الأول من روايته المعروفة عالمياً (دون كيخوته)، والتي تُعدّ أول رواية معاصرة، والمؤسِّسة للرواية الأوربية والعالمية الحديثة في آن واحد. صار من البديهيّ لدى القارئ العربي ذكر (ثربانتس) مقروناً بشكل دائم برائعته الكبرى (الفارس النبيل دون كيخوته دي لا مانتشا) أو (الدون كيشوت) كما هي معروفة اختصاراً في العالم أجمع. لكن مؤلفها الإسباني ميغيل دي ثربانتس (Cervantes ١٥٤٧-١٦١٦) ترك لنا أعمالاً أدبية لا تقلّ قيمة وثراء عن عمله الدون كيشوت كما عليه في الروايات المثالية هدفِ ترجمتنا هنا، وكذلك في أعمالٍ مسرحية أخرى، ليشكّل مع كُتّاب آخرين قمة آداب عصرهم المعروف بالعصر الذهبي لإمبراطورية عظمى هي الإمبراطورية الإسبانية التي امتدّ مجدُها من القرن الخامس عشر حتى بدايات القرن العشرين.

من المعروف اليوم، وبفضل العثور على وثائق ومستجدات عن حياة ثربانتس وعوالمه الأدبية، أن الكاتب لم يحِد عن الواقع كثيراً،

فالعديد من شخوص رواياته الخالدة قد رافقته في حياته وتعرف عليها من نماذج بشرية. وهو في هذا لم يخرج عن نموذج الكاتب الواقعي في عصره، غير أن تجديده جاء في النمط الروائي نفسه، وفي تعدد الصور الحكائية، وفي تناول الفرد والمجتمع، وفي لغته التهكمية والتجديدية الغريبة وغير المعروفة لدى كتّاب زمانه. ومن المسائل المهمة التي تجعلنا ندرك أهمية حياة وخبرة الكاتب ومدى إخلاصه للعمل الأدبي، هو اهتمامه الكبير والذي لم يفارقه في نتاجه الروائي خاصة التركيز على مصائر بشرية وأزمنة تاريخية حساسة، مع قراءة واعية محكمة تمنحنا نظرة نقدية متّقدة عن البشر وأهوائهم وهمومهم.

لقد خاض ثربانتس في مهن ومغامرات مختلفة، وشارك في حروب ونزاعات، وعاش تجربة الأسر وعمل في أعمال متنوعة لسدّ الرمق وإعالة عائلة كان فيها الرجل الوحيد لعدة نساء. كلّ هذا قبل أن يسطّر لنا رائعته (الدون كيخوته) تليها (الروايات المثالية). والحال لم يختلف كثيراً بعد شهرته، على الأقل في أوربا آنذاك، إذ عانى في سنواته الأخيرة من الفقر، وتجاهلته المحافل الأدبية بسبب الضغينة والغيرة. وهو في هذا لا يختلف عن أسماء معروفة في الفنّ والأدب، لم تحصل على عوائد شهرتها إلا وهي في القبور.

كتب ثربانتس رواياته لتكون شهادة على عصر إمبراطورية عملاقة

وصلت حتى أميركا واستمرت في غزواتها وعظمتها حتى نهايات القرن التاسع عشر. في كتاباته، جسّد ثربانتس الأبهة والعظمة جنباً إلى جنب مع التحلل الاجتماعي والفساد ومحاكم التفتيش الكنسية البغيضة والقسوة البشرية في ظلّ أزمنة متسارعة ومتصارعة حتى يومنا هذا.

ثربانتس بلا جدال هو «معاصرنا» الأول، ولا احتجاج بين النقاد والقراء على ذلك. كتاباته، على وجه الخصوص (الدون كيخوته) و(الروايات المثالية) هي الكتب الحقيقية التي لا تنتهي بصدورها، بل ببقائها طرية حيّة حتى لو مرت عليها أزمنة طويلة وتغيرت طبائع البشر وأزمنتهم. ومؤلفات ثربانتس هي الكتب الأكثر قراءة والأكثر طباعة وترجمة، ويكاد في هذا أن يتفوّق حتى على الكتب المقدسة بعدد النسخ ورواجها الشعبي والنقدي. بل أن ثربانتس بالنسبة للنقاد وقِطاع واسع من القراء ومن مختلف الجنسيات، يُعدّ الكاتب الإنساني الأول والروائي الأعظم في تاريخ الأدب، فكتاباته لا تزال لصيقة بأحلامنا وطموحاتنا، بل وحتى بخساراتنا المتكررة.

هذه الروايات المثالية القصيرة التي نقدّمها تباعاً وفي كتب مستقلة الواحد بعد الآخر، كتبها ثربانتس بفترات متباعدة بين الأعوام ١٥٩٠- ١٦١٢ ونشرها عام ١٦١٣ عند ناشره (خوان دي

كويستا) في مطبعته في مدريد بعد النجاح الكبير الذي حظي به الجزء الأول من الدون كيخوته (١٦٠٥) وقبل سنتين من نشر الجزء الثاني من الدون كيخوته (١٦١٥). وفي مقدمة الروايات المجموعة في كتاب واحد عند صدورها يذكر ثربانتس بأنه كتبها ليترك للأجيال ما يعظهم في حياتهم «إذ لا تخلو أية رواية من هذه الروايات على نموذج أو مثال أو عِظة أو فائدة أخلاقية»، ولهذا السبب أسماها بالروايات المثالية أو النموذجية، فالهدف الأعظم الذي جعله يكتبها هو توقيعه على مثال يساعد المجتمع والقارئ للنظر للأمور بنظرة أخرى. وثربانتس على أية حال ينجح في أغلبها بمنحنا تلك العظة والسمات المثالية التي رغب بتنويرنا بها، ولكن ليس كلّ رواياته امتلأت بهذه الأمثلة والنماذج، بل أن بعضها كما سيرى القارئ لا تمتّ بصلة لهدف ثربانتس المعلن عنه في تقديمه للروايات، ولعله هنا أيضاً قد تقصّد الخروج عن النمطية المثالية حتى لا يتشبع بها القارئ ويميل عنها للسبب هذا أو ذاك.

الشيء الأهم الآخر الذي يطبع متن الروايات المثالية وهو ما ذكره المؤلف في المقدمة العامة أيضاً هو أنه أول من كتب هذا النمط من الروايات القصصية باللغة الإسبانية، وهذا تأكيد موثّق لا غبار عليه. إذ أن جلّ الروايات المعروفة بالروايات القصيرة أو النوفيلا (Novella) المستوردة والمتأثرة بالنموذج الإيطالي السابق للنموذج

الإسباني، التي نُشِر أغلبها بالإسبانية سابقاً، أما عبارة عن محاكاة فجّة لرواية النوڤيلا الإيطالية، أو ترجمة لها من الإيطالية إلى الإسبانية دون أية تغييرات أو تنويعات دالّة. ومن هنا يُحسب لثربانتس قصب السبق في هذا المضمار، بل ويمكن أن نزيد عليها أنه قد أدخل الكثير من عناصر الواقعية المحلية الإسبانية ومعضلاتها وسماتها وطبيعة بشرها ومجتمعها، والتي زخرت بها الحياة في إسبانيا، لتكون المسرح الحقيقي والأساسي لمعظم رواياته المثالية.

من المعتاد بين نقاد أعمال ثربانتس والأدب الإسباني أن يصنّفوا رواياته المثالية إلى قسمين رئيسيين، مع تداخل البعض من عناصرها مع عناصر المجموعة الأخرى دون عينة كبرى لتصنيفها ضمن هذه المجموعة عن تلك. لقد قسموها إلى قسمين: الرواية ذات الصِبغة المثالية، وأخرى ذات الصبغة الواقعية. والمثالية منها هي الأقرب للنموذج الإيطالي والتي تميّز بمحتواها الرومانسي العاطفي وشجن علاقات الحبّ والمحبّين وهم شخوص نمطية لا تتصاعد وتيرة تطورها النفسي، وتكاد تكون أكثر بعداً عن محيط مجتمعها وتتميز بأسلوب، وإن كان رصيناً، إلا أنه يفتقر للحيوية المطبوع بها أسلوب ثربانتس المعتاد. كما يعتمد سياقها العام على المصادفات الغريبة والنهايات غير المتوقعة وإن كانت لا تفتقر لروح ثربانتس الحكائية. تدخل في هذا القسم الأول الروايات الخمس التالية: العاشق المتحرر El

الإسبانية Las dos doncellas، الفتاتان amante liberal، الإنجليزية La española inglesa، السيدة كورنيليا La señora Cornelia وقوة الدم La fuerza de la sangre. أما القسم الثاني فيضمّ الروايات ذات الطابع الواقعي المتمثل بالشخوص والمناخات الوصفية الحيّة بوازع نقدي متعدّد الأصوات في أحيان كثيرة. ويتميز أسلوبها ببساطة الحبكة والثيمة والإكثار من عروض المشاهدات اليومية المباشرة بلغة قوية وسريعة ومرهفة. وهي الروايات السبع التالية: رينكونيته وكورتاديّو Rinconete y Cortadillo، الرجل الزجاجيّ El licenciado Vidriera، الغجرية La gitanilla، غيور أكسترامادورا El celoso extremeño، الخادمة الشهيرة La ilustre fregona، الزواج الخادع El casamiento engañoso وحديث كلبين El coloquio de los perros.

والحقّ أن قراءة هذه الروايات مجتمعة لا يمنحنا ذلك التصوّر الأول بشأن تقسيمها كلّ حسب صبغتها، لأننا سنتواجه بمعالم وملامح متعددة مشتركة بين روايات الصنف الأول منها مع الصنف الثاني، وهو ما دفع بالعديد من النقاد لوضعها في فئات ثلاث بدلاً من فئتين اثنتين، ولكن حتى هذا التصنيف المتشعب يجعلنا في بُعد عن مغزى وهدف ورغبة ثربانتس نفسه في كتابة هذه الروايات القصيرة. الروايات بمجملها تدخل ضمن حيّز الروايات القصيرة أو القصص

الطويلة، والبعض منها أقصر من غيرها، وتتميز رواية (الغجرية) بكونها الأطول بينها. بينما تتداخل روايتا (حديث كلبين) و(الزواج الخادع) بكونهما قصتين في رواية واحدة، أي الواحدة منهما بمثابة مدخل روائي مطول للشروع بقراءة الرواية التالية، مما دفع أغلب الطبعات الإسبانية لمزجهما في كتاب واحد أو عدِّهما رواية واحدة بعنوان موحد أو عنوانين متشابكين.

عبر هذه الروايات التي تصدر تباعاً كلّ واحدة على حدة، إنما نترجمها ونقدمها للقارئ العربي كعيّنة مهمة من أعمال ثربانتس صاحب رائعة الدون كيخوته، وهي روايات لا تقلّ روعة عن قيمة العمل الأكبر، بل تشترك مع أعماله الأخرى بالهمّ الإنساني نفسه والقدرة الخارقة للقلم الروائي على تطويع الأحداث اليومية والتاريخية لتلك الحقبة إلى قصص ومسرحيات وروايات تكشف الجوانب الخفية للنفس البشرية في صراعها الدائم للبحث عن الهدف الأسمى للحياة واحتمالاتها المتعددة.

هذه الرواية: العجوز الغيور

وقد جاء عنوانها الأساسي بالطبعة الإسبانية حرفياً (غيور إسترامادورا) أو الرجل الغيور من إسترامادورا، و(إسترامادورا) إقليم في غرب إسبانيا، وقد وضعنا لها هنا عنواناً أكثر شمولاً هو (العجوز الغيور)، فبطلُنا الذي أصوله من هذا الإقليم سيعيش أحوال فقر صعبة ويقرّر أن يترك مدينتَه بحثاً عن حياة أفضل. آنذاك كانت أحلامُ الأغلبية من الإسبان هي أن تحملهم الأقدار حتى أميركا أو الأراضي الجديدة ليحصل على لقب معتبر وثروة هائلة بمتناول الجميع، ومنهم ثربانتس نفسه الذي حاول بشتى الصور أن يسافر، لكن لا واسطة لديه ولا السلطات نظرت بطلباته المتكررة. ربما من هذه الذكرى وقصص أخرى حدثت للعشرات يبني لنا صاحب الدون كيشوت تفاصيل هذه الرواية القصيرة بمزيج من الواقع والكثير من الخيال.

دون فليبه كاريثالس وهو اسم بطل روايتنا هذه سيقوم بتجريب حظوظه، إذ يرحل عن مدينته وإسبانيا شاباً بحثاً عن الجاه والثروات، ولم ينتبه لنفسه وهو في ربوع أميركا (تحديداً البيرو) إلا بعد أن وصلت الأيام إلى أرذل الأعمار، أو بعمر قريب أو أدنى من الشيخوخة والعجز. ولأنه لم يتمتع بفترات شبابه التي راحت نهباً

للبحث والطواف والسفر بحثاً عن الثروات في أميركا، ليحصل على ما يرغب من ثروات بعد سنين عمل طويلة ليعيش هانئاً مطمئناً ما بقي له من حياة.

والحقّ أن المؤلف قد ركّز جهده في هذه الرواية على سرد واقع ما كان يمرّ به الإسبان آنذاك. لم يطوّر الأمر بالحديث عن حياتهم في أميركا لطالما التزم بالواقع ومُجرياته التي كان يعرفها حقّ معرفة وعبّر عنها في أغلب رواياته، وهو الذي لم يرَ أرض أميركا قط، فكان أن مرّ بها مرور الكرام. ويخبرنا أن البطل دون فليبه قد أمضى نصف عمره تقريباً هناك جمعاً للثروة، وعندما لم تبقَ له من أسباب أخرى للمكوث أكثر، دفعه الحنين للعودة إلى الوطن. بعد هذه السنين سيعود إلى مسقط رأسه ولكنه سيجد نفسه وحيداً دون رفقة أو صحب أو أهل، منفرداً رفقة أموال طائلة دون شريك. ولما كانت الوحدة والوساوس قد وصلت حدّها الأعظم، يصاب الرجل بسهم العشق ويقرّر أن يتزوج من فتاة صغيرة.

الرواية تمضي بنا في دهاليز النفس البشرية، عن الخوف من الشيخوخة، عن الجشع وعن الغيرة التي تصيب الواحد لأنه ينظر للأمر بخطّ واحد يُمليه عليه هاجسه المسيطر بأن كل الأمر عبارة عن خدعة، وأن الكلّ لا يؤتمن على شيء. الحكاية نفسها التي عرفناها في

السرديّات المشرقية تتّخذ لها هنا نسيجاً إسبانياً، عن الغيرة والدسيسة والخيانة. وهو هنا يعاود التذكير أن الغيرة لا تصنع حياةً وأن كلّ الاحتياطات الواجبة يمكن خرقها حتى لو وضعنا من نُحبّ في جبّ عميق أو سددنا عليه الأبواب المتينة والجدران العالية والحراسات ليل نهار. ففي النهاية لو شاءت الأقدار والنفوس البشرية، لن تصمد الأبواب ولا الجدران ولا الحراسات. درس في تعلّم معدن الأعماق البشرية من خلال مثال حيّ قبل آلاف السنين أو اليوم نفسه الذي نعيشه الآن.

رواية عن الغيرة المُهلكة لمصائر البشر، وعن الشيخوخة المرّة والشباب غير الواعي، وعن العلاقات البشرية المتأزّمة وعن الحروب والعداوات وعن الإمبراطوريات الآفلة، ورغبة البعض بتقنين العالم وتعديله حسب مرامه ورغبته وهواه.

د. عبدالهادي سعدون

- مدريد ٢٠٢١ -

العجوز الغيور

لم تمرّ سنوات طويلة منذ أن غادر موطن ولادته في إسترامادورا(1) رجل لأبوين نبيلين، وقد حظي بنعمة التجوال في بقاع قصيّة من إسبانيا وإيطاليا والفلاندس(2) صارفاً طوال تلك السنوات كل ما بحوزته من أموال. وبعد طواف لا حصر له، وقد مات أبواه في تلك الفترة، ولم يبقَ في جيبه من أموال الإرث شيء مهم، استقر أخيراً في المدينة الكبرى إشبيلية، حيث بإمكانه أن ينعم بفرص العيش بالقليل الذي تبقّى معه. وقد رأى نفسه بحاجة شديدة إلى المال ولا أصدقاء له هنا، فأخذ بجدّية أمر أولئك الذين تعرضوا لخسارات لا يمكن رتقها في حياتهم أن يمضوا حتى الجانب الآخر من العالم، إلى العالم الجديد(3)، المستقر وملجأ الإسبان اليائسين وكنيسة المترفعين وصك غفران الجناة، وعصا ومجرفة اللاعبين (الذين يسمون بدهاة اللعب الخادع)، والمرتع العام للنساء المتحررات، وصفحة الخديعة للأغلبية والعلاج الخاص للقليل من البشر(4).

أخيراً مع مرور الوقت أبحر أسطول سفن عديدة حتى تيبرا فيرمي(5)، فاتفق مع قبطان واحدة منها على أن يصعد على متنها مع زوّادته وحشية سريره المتواضع. أبحرت من ميناء قادش وقد تُليت

الصلوات تمجيداً لإسبانيا، وبانشراح تام دفعت الريح الطيّعة المواتية بالأشرعة، وفي ظرف ساعات غابت اليابسة عن الأنظار وبدأوا اكتشاف المدّ الشاسع العريض لمياه بحر المحيط (6).

راح مسافرنا مفكّراً بأموره وقد راجع بذاكرته ما مرّ به من حوادث عصيبة مختلفة، وكل ما اقترفه من أخطاء، واقتنع أنّ قراره بالرحيل هو الأفضل لتعديل مجرى حياته، كما أقسم مع نفسه أنه سيتصرّف بشكل مناسب ليحافظ على ما تمنّ به الحياة من نِعم جديدة وكذلك الابتعاد عن النساء وحبائل غوايتهن. وبينما كان فليبه دي كاريثالس (وهذا هو اسم ولقب بطل قصتنا) يقلّب أفكاره ويعاود استرجاع ما مرّ به من خطوب وما ينتظره من أحداث في المستقبل، كانت السفن تمخر بسلام وأمان. لكن العواصف الشديدة الهائجة سرعان ما أخرجت السفن عن مسارها ورجتها بقوة زادت من قلق المبحرين على متنها. لهذا قطع كاريثالس سلسلة خيالاته وترك نفسه تمضي مع ما يجيء به البحر من أسرار حتى وصولهم أخيراً إذ أرست السفن كلها في ميناء قرطاجنة بسلام (7). وحتى لا ندخل في ما لا يعنينا من تفاصيل أخرى، أذكر أن فليبه عندما وصل الأراضي الجديدة كان له من العمر ثمانية وأربعين عاماً. وفي العشرين عاماً التي أمضاها هناك، بفضل براعته وتفانيه، جمع ما لا يقلّ عن مائة

وخمسين ألف من عملة البيسو المختومة (8).

عندما وجد نفسه غنياً وصاحب جاه، وقد دهمته فكرة العودة إلى الوطن كحال آخرين مثله، جمع كل أمواله التي حصل عليها وسجّلها في وثيقة رسمية وحوّلها إلى سبائك من الفضة والذهب تاركاً البيرو بلا رجعة عائداً إلى إسبانيا. ووصلها في ميناء سان لوكار ومنها اتجه إلى إشبيلية مثقلاً بسنين غياب عديدة وأموال طائلة. ولم يتأن لوقت طويل حتى راح يبحث عن أصدقائه ووجد أنهم قد ماتوا جميعهم، فقرّر الرحيل إلى مسقط رأسه في إسترامادورا مع يقينه أنه لن يجد أحداً من أقاربه على قيد الحياة. وكما حصل عندما غادر إلى الأراضي الجديدة فقيراً بائساً، هاجت عليه الأفكار نفسها وجعلته في الوسط تماماً مثلما كان عليه في عرض البحر وإن اختلفت الأسباب بين الحالتين. فإذا كان لا يستطيع النوم عندما كان فقيراً، فلم ينعم بالراحة وهو غنيّ اليوم، لأن الغنى يجلب الهمّ والحذر مثلما عليه الفقر تماماً. ولو فكرنا أن الثروة المعتدلة تصدّك عن الحالتين، فالثروة الفاحشة تزيد نارها مشقة.

راح كاريثالس يتأمّل سبائك ثروته لا حرصاً وتقتّراً، فقد كان في سنوات خدمته جندياً، رجلاً مبذراً، لكنه كان يتمّعن فيها ويفكر أي الطرق أفضل لها، لأن الاحتفاظ بها في داره ستجعل منه طعماً

مغرياً ورغبة مضاعفة للسُرّاق.

كانت قد ماتت في داخله رغبة المتاجرة من جديد، وبدى له بعد هذه السنين، أن ثروته تكفي وتزيد لقضاء حوائجه ما تبقى له من حياة. لهذا فكر أن يحمل ثروته ويعود لبلده تنتابه فكرة تزكيتها وإنفاقها هناك حتى يقضي شيخوخته بسكينة وأمان. ولكي يتفرغ لعبادة الرب وأعمال الخير خاصة وأنه قد خدم دنياه أكثر من اللازم. من جانب آخر، لم تقنعه كثيراً فكرة العودة إلى مسقط رأسه، خاصة، وأن الفقر على أشدّه هناك، مما سيجعله هدفاً لإلحاح الفقراء والبائسين القريبين منه، لا سيّما وأنهم لا يجدون من يشدّ من أزرهم ويعينهم على محنتهم. ولما لم يكن له من أحد كي يترك له ثروته بعد رحيله، كانت أمنيته بالاقتران تدفع به دفعاً حثيثاً وتضخّ طاقة في دمائه. اليأس والحاجة تجعلانه يفكر بأنه اليوم قادر على الزواج وما يتبعه من نفقات ومسؤولية. مع ذلك فالخوف يشلّه تماماً ويفتّته بشدة مثلما تفعل الريح مع الضباب، فالواقع أنه رجل شديد الغيرة، حتى وهو في شبابه، إذ كانت تتنازعه الشكوك والأوهام لمجرّد التفكير بالزواج، لهذا هجر الخاطر الملحاح وفضّل أن يبقى عازباً.

بعد أن توصل لهذا المرام وقبل أن يتّخذ قراراً لما عليه أن يعمله في مستقبله القريب، شاءت الأقدار وهو يتمشّى في أحد شوارع المدينة،

أن يرفع ببصره إلى الأعلى ويلمح وجه فتاة تطلّ من نافذة بيتهم، لم يكن لها أكثر من ثلاثة أو أربعة عشر عاماً، بمُحيّا مليح خارق الجمال، ولما لم يكن قادراً على تفادي الضربة الملحاح، سقط العجوز الطيّب كاريثالس بسنيّ عمره الطويلة صريع السنوات الغضة لليونورا، وهذا هو اسم الفتاة رائعة الحسن. ودون أن يتوقف للحظة، بدأ خياله بالتفكير وراح يحدث نفسه قائلاً:

«هذه الفتاة الجميلة لا تبدو من عائلة غنيّة من مظهر البيت الذي تسكن فيه: ولكونها صغيرة السنّ فلن تثير مخاوفي ولن تزيد من شكوكي، ولو تزوّجت بها وأغلقت عليها باب بيتي سأشكلها على رغبتي وأعلّمها ما أريد. كما أنني لست بالعجوز، ولن أفقد الأمل بوريث من صُلبي. ثم أن يكون لها مهر أم لا فهذا لا يهمني (9)، لأن السماء قد رزقتني بما عندي من ثروة، والأغنياء مثلي ليس عليهم المضي بزواج مصلحة بل عن المتعة: فاللذّة تطيل العمر والتنغيص يقصر من عمر المتزوجين. لقد حُسم الأمر، السماء والأقدار يرغبان لي ما أريده لنفسي»،

داور الفكرة في رأسه لا لمرة واحدة بل لمئات المرات، وما أن مرّت بضعة أيام حتى مضى ليحدث والدي ليونورا، وعلم عنهما وإن كانا فقيرين إلا أنهما من أصل نبيل، وبعد أن قدّم لهما نفسه وما

له من أملاك وجاه وافقا على تزويجه بابنتهما. وكان أن طلبا منه وقتاً ليعرفا حقيقة ما أخبرهما به وهو بالوقت نفسه ليتأكد من صدق منبتِهم. توادعوا وتأكد كل طرف ممّا رغب به، وعندما تمّ لهم كل شيء وافقا في النهاية بتزويج كاريثالس بابنتهما ليونورا مقابل مهر أولي مقداره عشرون ألفاً من الدوكات.

وما أن دفعها ونطق بموافقته زوجاً للصبيّة حتى بدأت الغيرة تنهشُ صدر العجوز. ودون سبب ظاهر أخذ يرتعد ويرتجف وقد ركبَته الغيرة العمياء بما لم يمرّ بمثله من قبل. وكانت أُولى مظاهر غيرته القاتلة أنه لم يسمح للخيّاط بأخذ قياسات زوجته لغرض تجهيز ثياب عرسها، بل مضى يبحث عن امرأة قريبة الشبه بمقاسات ليونورا، فعثر على امرأة فقيرة ومن مقاساتها طلب أن تجرّبها ليونورا، وعندما رآتها جيدة، طلب من الخياط أن يخيط بقيّة الثياب على منوالها. وكانت الثياب من الجودة وغلاء الثمن أن أبوي ليونورا فرحا بعثورهما على صهر يقدّر ابنتهما حقّ تقدير. أما الصبيّة فقد كانت منذهلة من الهدايا الثمينة، إذ لم تحظَ في حياتها سوى على تنورة مشقّقة وقميص من قماش التفتا.

وكان ثاني مظاهر غيرته الشديدة أنه لم يرغب بالاجتماع مع زوجته حتى يجهّز لها بيتاً خاصاً بهما. وهو ما قام به على الوجه التالي: اشترى

باثني عشر ألف من الدوكات بيتاً في أحد أحياء المدينة الرئيسية، يضمّ نبعاً للمياه وحديقة مزدانة بأشجار البرتقال. وكان أن غلّق كل النوافذ المطلة على الشارع أو السماء، وقام بالشيء نفسه مع نوافذ البيت الأخرى. وفي مدخل البيت، وهو ما يسمونه في إشبيلية (فسحة المدخل) شيّد حظيرة للبغلة وفوقها تماماً مخزناً للعلف وغرفة للذي سيعتني بها، وهو رجل زنجيّ مخصيّ. وكان أن رفع من علو أسوار البيت بحيث أن من يدخله لا مجال له للرؤية سوى صفحة السماء ولا شيء آخر. كانت صلة المدخل بفناء البيت تتمّ عبر صندوق دائري متحرك لا غير(10).

ثم أقتنى من الأثاث الفاخر ما يساهم بتزيين البيت من سجاجيد وبُسط وستائر لتشي على أنه سيد غنيّ مقتدر. واشترى أيضاً أربع جوار بيض وزنجيّتين وعلَّم على وجوههنّ بعلامات دليل تملّكه لهن (11). ثم تعاقد مع متعهد للمؤونة لشراء كل ما يحتاجونه في البيت على شرط ألّا يدخل البيت، وإن صلته الوحيدة تتمّ عبر الصندوق الدوار وبعد كل ذلك، وضع جزءاً من ثروته في مشاريع مضمونة الربح، والباقي قسم منه في المصرف، محتفظاً بجزء معه ليقضي به حاجات بيته. وقام أيضاً باستخراج مفتاح واحد لا غير لكل بوابات البيت. ثم خزن في البيت ما يكفي مؤونة طعام لعام واحد.

وعندما أتمّ كل شيء على وجه الدقة، مضى إلى بيت حمويه ليطالب بزوجته، فسلماه ابنتهما وهما يبكيان، فقد أدركا أنه يحملها إلى قبرها.

أما الرائعة ليونورا فلم تكن على معرفة بما ينتظرها، فراحت ببكاء حارّ مودعة والديها مطالبة ببركتهما، ثم ودّعتهما ممسكة بيد زوجها ومحاطة بالخدم والعبيد. وفور دخولهم البيت، شرع كاريثالس بترديد تعليماته عليهن، وقد عهد إلى ليونورا بحظية ترافقها مطالباً عدم السماح لأيٍّ كان حتى لو كان الزنجيّ المخصيّ بالدخول من البوابة الثانية. أما التي عهد لها برعاية ليونورا فهي سيّدة جادّة خبيرة وجعل منها مسؤولة على جميع من في البيت بما فيهن الجواري ووصيفتين بعمر ليونورا لكي تجد معهما التسلية وتمضية الوقت.

أبدى كاريثالس لنساء البيت استعداده لإغراقهن بالهدايا وتلبية كل طلباتهن حتى لا يشعرن بالوحدة. كما أعلن عن استعداده لمرافقتهن لسماع قدّاس يوم الأحد قبل شروق الشمس حتى لا يراهنّ أحد، وهنّ بدورهن عاهدنه على الوفاء وتنفيذ أوامره عن طيب خاطر ورغبة وحماسة. أما الزوجة الجديدة، فهي إضافة لهز الكتفين وخفض الرأس، قالت له إنها في خدمة وطاعة زوجها وسيّدها ورهن إشارته دائماً.

بعد هذه القائمة الطويلة من التحفظات والاحتياطات، بدأ عجوز

إسترامادورا الطيّب التمتّع قدر الإمكان بحلاوة زواجه. بينما لم تكن ليونورا متمتّعة ولا منزعجة خاصّة وأنها عديمة الخبرة بهذه الأمور. وكانت تمضي وقتها المتبقي رفقة راعيتها والخادمات والوصيفتين، وكنّ في كل مرة يطلبن كل ما يشتهين، ورجل البيت ينفذّه على الفور، ظناً منه أنهن ينشغلن بهذا ويتسلّين وينسين التفكير بحالهن داخل جدران سجنهن.

كانت ليونورا منهمكة طوال الوقت رفقة الخادمات تعمل معهن ما يقمن به من أعمال، كما كانت منهمكة باللعب بالدمى وألعاب الفتيات مما يدل على بساطتها وقصر سني عمرها. لكن كل ذلك ملأ صدر العجوز الغيور بالقناعة، وأنه قد أصاب في ما اختار لنفسه من حياة على هذه الشاكلة، فلا الخباثة ولا الدهاء بقادرين على زحزحة ما بناه أو أن يعكّر صفو مزاجه. وكان كل ما يقوم به هو إحضار الهدايا لها وحثّها على طلب المزيد. أما في أيام قدّاس الأحد، كما قلنا سابقاً، فكان يخرج بها قبل شروق الشمس لتلتقي بأبويها داخل الكنيسة بحضور زوجها الذي ينقّدهما أموالاً كثيرة، لكنهما رغم ذلك كانا يشعران بالحزن على مصير ابنتهما ويتأسّفان لحالها رفقة زوجها كاريثالس.

كان العجوز الغيور ينهض مبكّراً كل يوم بانتظار متعهّد المؤونة الذي

تسلّم قائمة بالاحتياجات في الليلة السابقة، ليقوم بتفريغها في الصندوق الدوار يخرج بعدها كاريثالس مشياً على الأقدام أغلب الأحيان، بعد أن يُغلق البوابتين الخارجية والوسطى، وبينهما يجلس الزنجيّ حارساً للبيت. كان يمضي لمشاغله القليلة ويرجع للبيت بسرعة. رفقتهن في سجنهن يزيد من هداياه لزوجته ويداعب الخادمات اللاتي تعلّقن به وأحببنه لأنه كان ودوداً معهن، متواضعاً وكريماً جداً.

على هذه الحال مرّ عام على زواجه وكان من الممكن للحياة أن تمضي على منواله لو لم تتدخل أقدار البشر وضغينتهم وخبثهم في ما خططه لنفسه وأهل بيته، كما سترون الآن.

والآن لتخبروني فيما لو رأيتم قبل اليوم رجلاً أشدّ حيطة وحرصاً من العجوز فليبه الذي خطط لكلّ شيء تقريباً، أهمها عدم السماح لأي ذكر بالتواجد داخل البيت: ففي البيت لا وجود لقطّ يلاحق الفئران، ولا أثر لنباح كلب. كان يسهر الليل مفكراً اليوم كله، لا ترقد له همة بحراسة البيت وأميناً عليه. لم يكن يسمح لرجل بتجاوز عتبة البيت، متّخذاً من الشارع مكاناً للتباحث ورؤية الأصحاب. وجلّ مناظر الأقمشة التي تزيّن أرجاء البيت من جدران وأثاث عبارة عن صور لفتيات أو أزهار أو حدائق. كان البيت يضجّ بالعفاف والحياء والعزلة، إذ حتى حكايات الليل الشتوية أمام المدفئة التي

تقصّها الجواري والخادمات بحضوره شخصياً، لا أثر فيها لفاحشة أو ذكر لإيحاء من أي نوع. لقد كانت فضّة شيب العجوز في نظر ليونورا عبارة عن جدائل من ذهب خالص، لأن الحب الأول للفتيات يطبع على قلوبهن بختم من الشمع. وبدا تشدّده في الحراسة أمراً طبيعياً لها، وكانت تظنّ أن كل المتزوجات حديثاً يمررن بحالها. لهذا لم تفكّر باجتياز عتبة دارها مصمّمة على تنفيذ أوامر زوجها. كان كل ما تراه من الخارج هو مرورها بشوارع معتمة عندما يحملها إلى قدّاس الكنيسة. لأنها كانت ترى الأشياء عند عودتها من الكنسية والشارع مضاء. عكس الذهاب فجراً والشارع مظلم.

لا وجود لدير أشدّ إحكاماً، ولا راهبات معتكفات ولا تفّاحات ذهبيات مختبئات مثلهن، مع ذلك كله لم يستطع تفادي السقوط في ما تخوّف منه، لو أسلمنا بسقوطه فعلاً.

في إشبيلية شلة من الشباب الزعران الكسالى من الذين يُدعون بشباب الحي. وهؤلاء هم أبناء عِلية القوم وأثريائهم: شباب فاسد، متهالكون على المُتع بملبسهم وطريقة عيشهم والقوانين التي تسندهم، ولكننا احتراماً لذويهم نترك الأمر عند هذا الحدّ.

واحد من بين هذه الجماعة ممن يسمون بالعزاب أو المخادعين أو ما يطلق عليهم بالمنتفعين عندما يكونون حديثي الزواج، كان قد راقب

العزلة والصمت الذي يحيط ببيت كاريثالس وأثارته فكرة الأبواب المقفلة دائماً، مما زاد الفضول والتوق في رأسه للتعرف على المقيمين فيها وهو ما شرحه لأصحابه بغرض التحرّي عن أسرار الدار وأهلها. وكان قد عرف أشياء عن كاريثالس وعن زوجته الحسناء وطريقته بحراستها. كل ذلك أشعل الرغبة في داخله لاختراق الحواجز المنيعة سواء بالقوة أو بالدهاء. وشرح الأمر للثلاثة فأشاروا عليه البدء فوراً، لا سيما أن أمراً مثل هذا لا يعهد من يجد فيه المشورة والعون.

وأمام الحراسة المشددة، زاد إصرار الشلة على أمر في نفوسهم، وفي النهاية توصلت الجماعة بتقرير الأمر بيد أحدهم المدعو لوايسا لتنفيذ ما رأوه: أن يقوم برحلة خارج المدينة ليختفي عن العيون، ليعود بعدها وقد ارتدى ثياباً نظيفة من لباس وقميص من الكتّان، ويرتدي فوقها أخرى عتيقة مهلهلة مرقّعة لا مثيل لها حتى عند أفقر أبناء المدينة. وأن يشذب لحيته قليلاً ويغطي عيناً برقعة قماش ويمثل أنه يعرج من ساق له قصيرة ويستخدم عكازين، بحيث أن أشنع المعاقين الشحاذين لا يضاهونه بتنكره إطلاقاً.

على هذه الهيئة كان يقف ساعة الصلاة أمام بيت كاريثالس المغلق دائماً، مع بقاء الزنجيّ لويس -وهذا هو اسمه- محصوراً ما بين البوّابتين. جلس لوايسا رفقة غيتاره المبقع بالشحوم وبعض أوتاره

مقطّعة وراح وهو العليم بالموسيقى يعزف ألحاناً مفرحة منعشة للروح مع تغيير طفيف بصوته حتى لا يتعرف عليه أحد. وفيها كان ينشد أشعاراً تتغنى بالعرب والمسلمات بالحان عذبة تطرب المارين في الشارع فيتوقّفون لسماعه. لم يكن لمرّة لوحده، بل محاط بالشباب دائماً. والزنجيّ لويس كان يتنصّت من خلف البوابة مشدوداً لموسيقى لوايسا، وكان لو الأمر بيده لفقد ذراعاً من ذراعيه لقاء فتح الباب والاستماع بمتعة أكبر. كل هذا لانشداد الزنوج ورغبتهم أن يكونوا من العازفين. عندما يرغب لوايسا أن يتركه الشباب بحاله، كان يتوقف عن العزف والغناء ويحمل غيتاره ويمضي بحال سبيله متعكزاً على عكازيه.

أكثر من أربع أو خمس مرات كان يعزف الموسيقى للزنجيّ (وكأنه كان يعزف له لا غير)، فوجد لوايسا أن الطريقة الوحيدة لاقتحام البيت لن تكون إلا عن طريق هذا الزنجيّ. وتفكيره هذا كان على أشدّه في ليلة وهو بالقرب من بوابة البيت كما هي عادته وقد جهز غيتاره للعزف، شعر أن الزنجيّ كان متأهّباً لسماعه مجدداً، فما كان منه إلا الاقتراب من فتحة البوابة، وتحدّث له بصوت منخفض قائلاً:

«هل من الممكن عزيزي لويس أن تعطيني قليلاً من الماء، فقد

جفّ حلقي ولا أستطيع الغناء؟».

«لا أستطيع»، قال الزنجيّ، «ليس معي مفتاح لأفتح لك ولا أيّ ثقب بحيث أمرّر لك قدحاً؟».

«ومن عنده المفتاح إذن».

«سيدي»، أجاب الزنجيّ، «وهو أشد الناس غيرة في هذه الدنيا. ولو علم أنني أتحدث معك الآن، فستكون نهاية حياتي. لكن من أنت؟».

«أنا رجل معطوب الساق، أكسب قوتي من عطايا الناس الطيبين، وإضافة لذلك أقوم بتعليم العزف لبعض الفقراء والزنوج. ومن تلامذتي ثلاثة زنوج وثلاثة من العبيد بأعمار لا تتجاوز الرابعة والعشرين، وقد علّمتهم الغناء والعزف على إيقاعات راقصة في أفضل الصالات، وقد دفعوا لي بسخاء».

«لن أكون أقل منهم سخاءً»، قال لويس، «لو سنحت لي الفرصة، لكن هذا مستحيل مع سيد مثل سيدي ما أن يخرج صباحاً حتى يغلق البوابة المؤدي للشارع، ويعمل الشيء ذاته حال عودته، وقد تركني محبوساً ما بين البوابتين».

«لا تيأس عزيزي لويس»، وكان قد علم مسبقاً اسم الزنجيّ،

«لأنني متأكد أنك لو عثرت على طريقة بالدخول سأعلمك بظرف خمسة عشر يوماً ما يجعل منك عازفاً ماهراً عند أية ناصية لأنني خبير بالتعليم، وقد علمت أن لجنابكم مقدرة كبيرة في الغناء وهذا حزرته من نبرة صوتك الجياش».

«لا أُغني بشكل سيّئ، لكنني قادر على التدريب وإن كنت لا أعرف من الغناء غير أغنيتين هما: نجمة فينوس (12) وفي المرج الأخضر (13)، أو تلك التي يردّدونها اليوم:

بقضبان من الحديد (14)

تتشبث يدُ حيرى...».

«كل هذا قبض ريح»، قال لوايسا، «مقارنة بما يمكنني تعليمك، لأنني اعرف كل أغاني المسلم ابن سراج وما قاله بمحبوبته شريفة وكل ما انشده المتصوف تيمون باي (15) في تمجيد ما هي إلهي حتى أنها تثير غيض البرتغاليين أنفسهم. لتعلم أنني أتبع طرقاً سهلة في تعليم تلاميذي حتى لو يكونوا من النبهاء، فيتشربون أصول العزف بكل أصناف موسيقى الغيتار بمدة لا تزيد عن هضمهم لبضعة لقيمات مالحة»!!

وهنا تنهّد الزنجيّ قائلاً:

«وكيف أتعلم كل هذا ولا أعرف طريقة لإدخالك البيت؟».

«بطريقة يسيرة يا عزيزي، ما عليك سوى الحصول على مفاتيح سيّدك وأنا أعطيك قطعة من الشمع كي تطبع المفتاح بصورة بارزة على صفحتها. ولأنني قد أحببتُك فسأتجشم عناء البحث عن حدّاد ليصنع لنا نسخة منها. وهكذا أستطيع التسلل ليلاً لأعملك تعليماً أفضل من علوم القسيس يوحنا(16). أرى أنه من المحزن أن نفقد صوتاً رائعاً مثل صوتك، والذي سيتطور بمعرفة بسيطة بالعزف على الغيتار. ولتعلم يا أخي لويس أن أفضل أصوات العالم يفقد قيراطاً من عذوبته عندما لا ترافقه آلة موسيقية كأن يكون الغيتار أو البيانو أو الأرغن أو القيثارة. أما ما أجده مناسباً لصوتك فهو بلا شك آلة الغيتار لسهولة العزف عليها ولكلفتها القليلة».

« كل هذا يبدو لي رائعاً»، أجابه الزنجيّ، «لكنني لا أستطيع الحصول على المفاتيح لأنه لا يعهد لي بها إطلاقاً، ولأنها لا تسقط من يد سيدي ليل نهار، بل وحتى عندما ينام فهو يدسها تحت وسادته».

«لتقم بشيء آخر يا لويس طالما عندك الرغبة لأن تكون موسيقياً، وإلا فلا داعي للتعب بالبحث عن نصائح مجدية».

«بل عندي الرغبة»، ردّ لويس، «ولأجلها يمكنني أن أقوم بأي

شيء لتحقيقها».

«لو كان الأمر ما تقول فسأقوم بإعطائك من تحت عقب الباب، ما أن تزيح القليل من التراب، مطرقة وكماشة لتنتزع بها ليلاً مسامير القفل (17) بسهولة، وبها نفسها نعيده إلى مكانه بطريقة لا تسترعي انتباه أحد. وعندما أكون في الداخل سنختلي معاً في كوم القش في الحضيرة أو في مكان نومك، وسترى السرعة التي ننجز بها الأمر وتحقّق مما أقوله لك. أما عن الطعام فلا تقلق بشأنه لأنني أحمل زوادتي معي وبها ما يكفينا لثمانية أيام، كما أن لي من الأتباع والأصحاب ما يُعتمد عليهم».

«لا تقلق بشأن الطعام». رد الزنجيّ، «لأن الحصة المخصّصة لي وما تزوّدني به الخادمات يكفي لإطعامنا واثنين آخرين معنا. فقط أنجدني بالمطرقة والكمّاشة وسأقوم بحفر ما يساعد على المرور، ومن ثم أعود لسدّه وتغطيته بالطين. ولا اعتقد أن سيدي سيسمع ضرب المطرقة من غرفة نومه البعيدة، إلا إذا حدثت معجزة أو سوء حظ تكشفان فعلتنا».

«ستكون بين يديك في ظرف يومين بمشيئة الربّ، وهي كافية للبدء بمشروعنا العظيم. أطلب منك أن تتجنّب الوجبات الحريفة من الآن وصاعداً لأنها تؤذي الحنجرة وتعبث بالأصوات الرخيمة».

«لا شيء يؤذي الحنجرة أكثر من النبيذ، لكن مع ذلك لن أقلع عن شربه حتى خيرت ملء الأرض أصواتاً مبهجة».

«لا تقُل هذا، فالربّ قد سمح به. أشرب وتمتع يا أخي لويس ما استطعت إليه سبيلاً، فشرب النبيذ دون إفراط لن يسبب الأذى إطلاقاً».

«وهو ما أقوم به فعلاً، إذ أن لي جرة تملؤها لي الخادمات دون علم سيدي، كما أن المتعهّد يمنحني قنينة لقاء النقص الحاصل في الجرار التي يجلبها للبيت».

«وهو ما أقوله يا عزيزي وما أراه في الحياة، لأن الحنجرة الجافة لا تنشد ولا تصرخ».

«لتمض في درب الرب»، رد الزنجيّ، «لكن لا نتوقف عن المجيء

إلى هنا والغناء بالقربّ من دارنا كل ليلة حتى نستطيع الدخول هنا، إذ أن أصابعي تهرشني شوقاً لمداعبة الغيتار».

«عندما يصل اليوم، سأحضره بأوتار جديدة».

«كما أرجو قبل ذهابك أن تغني لي ما يسرّ ليلي لكي أنام براحة، ولتعلم أيها السيد أنني سأدفع لك لقاء تعليمي أفضل مما يدفع رجل ثري».

«لن أتوقف عند هذا الأمر، فحسب ما أعلّمك ستدفع لي. أما الآن فاسمع مني هذه الأغنية، وعندما أكون في الداخل سترى مني المعجزات».

«ستكون ساعة مباركة». أجاب الزنجيّ.

وعندما انتهيا من حديثهما المطول، أنشد لوايسا أغنية رشيقة ملأت قلب الزنجيّ بالبهجة والسرور، وجعلت تفكيره كله منصباً على ساعة فتح الباب المرتقبة.

وما أن ابتعد لوايسا عن الدار حتى التقط العكازين وراح يجري ليقصّ على أصحابه ما توصل له من لقائه مع الزنجيّ، والنهاية التي يترجّاها. وفي اليوم التالي زودوه بكل ما يحتاجه من آلات كفيلة بانتزاع أعتى المسامير وأشدها متانة.

خلال تلك الفترة لم يخلف لوايسا وعده بالعزف كل ليلة قرب بوابة الدار، كما لم يهمل العجوز الزنجيّ ما اتفق عليه من إحداث فتحة تحت البوابة، غطّاها بذكاء حتى لا تتعرف عليها العيون الخبيرة الشكاكة، ما لم تقع سهواً في الحفرة نفسها.

في الليلة الثانية أعطاه العدّة اللازمة، وجرب الزنجيّ العجوز همّته معها، ولم يتطلب الأمر الكثير من الجهد ليخلع المسامير عن

الأقفال التي تساقطت بخفّة بين يديه. حينها فتح البوّابة وسمح لأورفيوس(18) معلمه بالدخول. ما أن رآه وجهاً لوجه بعكازين وثياب بالية وقد لّف ساقه بالضمادات، حتّى ازداد إعجاباً وتقديراً. لكنه لم يُغطِّ عينه برقعة القماش فلم يجد ضرورة وقد ذلك وقد أصبح في الداخل. دخل متهللاً معانقاً تلميذه وطبع قبلة على جبينه، ثم وضع بيديه قربة نبيذاً وحافظة الطعام والحلوى مما كان يحملها معه في زوّادته التي جهزها له أصحابه. هنا ترك عكّازيه جانباً وكأنه لم يكن يستعملهما قبل ذلك مما أثار إعجاب الزنجيّ أكثر، لهذا راح لوايسا يشرح له الأمر:

«لتعلم يا أخي لويس أن عرجي ليس من مرض بل من صنعة وهي التي أرتزق بها ما يسد رمقي بمحبة الرب، والتي بفضلها وفضل موسيقاي أعيش أفضل ما في العالم، لهذا كل أولئك الذين لا يعملون بها عن صنعة، لا بد أن ميتتهم مؤكدة جوعاً، وهو ما ستراه بفضل صداقتنا».

«أقول لك»، سأله الزنجيّ، «من الأفضل أن نُعيد الأشياء إلى موضعها حتى لا يلمح أحد التغيير فيها».

«وهو كذلك». أجابه لوايسا.

ثم أخرج من جرابه المسامير وأعاداها إلى الأقفال وكأن أي تغيير لم يحدث لها، مما أفرح الزنجيّ. بعدها صعد لوايسا حتى مضجع الزنجيّ عند كوم التبن، وجلس هناك بكل راحة.

أشعل بعدها لويس شمعة، ودون أية مقدمات استل لوايسا غيتاره وبدأ العزف بتمهل وبهدوء مما جعل العجوز المسكين ينصت بكل جوارحه. بعد قليل من الوقت أخرج وجبة طعام جديدة وأعطاها لتلميذه، وإن كانت مزيجاً من الحلوى إلا أنه شرب عليها نبيذاً من القربة مما جعله منتشياً أكثر من سماعه للموسيقى. عندما مضى الحفل في مساره، أمر لويس أن يحتضن الغيتار، وبما إن الزنجيّ المسكين قد ملأ رأسه بأربعة أرطال من النبيذ بحيث لم يبقَ فراغ للموسيقى فيه، إلا أنه قبل الأمر وراح يعزف جزافاً، أقنعه بعدها لوايسا أنه على الأقل يعرف العزف على سلّمين موسيقيين. وهذا ما أعتقد به الزنجيّ، فراح طوال الليل يكيل الغيتار من ضرباته الكليلة.

ناما بعد ذلك ما تبقى من الليل، وفي تمام السادسة صباحاً نزل كاريثالس وفتح البوابة الوسطى وبعدها البوابة المؤدية إلى الشارع، وبقي ينتظر إطلالة الممّون الذي لم يتأخر سوى القليل، وهنا نادى على الزنجيّ أن يعلف البغلة حصتها اليومية، وما أن قام بعمله حتى خرج العجوز كاريثالس وقد أغلق الأبواب من بعده، دون أن

ينتبه لما تمّ عمله تحت بوابة الشارع، ممّا جعل المعلّم وتلميذه يشعران بالسعادة.

ما أن غاب سيد البيت حتى أخذ الزنجيّ الغيتار من معلّمه وشرع يعزف بحيث أثار انتباه الخادمات اللاتي اقترين ليسألنه:

«ما هذا يا لويس؟ ومن أين جئت بالغيتار، ومن أعطاك الآلة؟»،

«من منحني الغيتار؟ إنه أفضل موسيقيّ في العالم، والذي سيعلّمني خلال ستة أيام أكثر من ستة آلاف نغمة»،

«أين هو هذا الموسيقي؟»، سألته قهرمانة البيت.

«ليس بعيداً من هنا»، أجابها الزنجيّ، «ولولا الحياء وخشية غضب سيدي لقدّمته لكنّ وابتهجتن برؤيته»،

«وأين يمكن أن يكون حتى نستطيع رؤيته، ما دام الرجل الوحيد الذي يزور بيتنا هو سيدك لا غير؟»،

«حسناً»، أجابها الزنجيّ، «لن أخبركنّ بشيء عنه حتى تستمعن لما علّمني إياه في فترة قصيرة»،

«لا بد وانه الشيطان بعينه هذا الذي علمك الموسيقى في وقت قصير»،

«سيأتي اليوم الذي ترينني وتسمعن فيه موسيقاي».

«هذا محال»، قالت إحدى الوصيفتين، «لأن لا نوافذ عندنا حتى نرى ونستمع لأحد في الشارع».

«أعرف ذلك، ولكن لكل شيء علاج إلّا الموت، هذا فيما لو علمتنّ الأمر وصمتُّنّ عن قوله».

« كيف تريدنا أن نخرس أخي لويس»، احتجت واحدة من الجواري، «سنصمت كما لو كنّا خرساوات فعلاً. نعدُك بذلك لأني أموت شوقاً لسماع صوت حقيقي، لأننا ها هنا نتحسّر حتى على سماع زقزقة العصافير».

كان لوايسا يستمع لحوارهم ويشعر بالسعادة لأن الأمور تمضي على مرامه، وأن القدر السعيد يأخذ بيده في الدرب المنشود.

مضت الخادمات مع وعد من الزنجيّ أنهنّ في القريب سيصل إلى مسامعهنّ أفضل صوت في العالم، ولخوفه أن يعود سيده ويجده يتحدث معهنّ، تركهنّ بسرعة وأغلق على نفسه الأبواب. كانت له رغبة أن يعزف مجدداً، لكنه لم يجرؤ أن يعزف في النهار حتى لا يسمعه سيده، لهذا حصر نفسه في زاويته وأغلق كل المنافذ كعادته وحبس نفسه في البيت. وفي اليوم التالي عندما منحت إحدى

الزنجيّات الطعام للعجوز الزنجيّ عبر الصندوق الدوار، أخبرها لويس أن هذه الليلة عندما يخلد سيدها للنوم، عليهنّ أن يهبطن كلهنّ دون إبطاء حتى حدّ الصندوق الدوار لسماع ذلك الصوت الذي وعدهنّ به.

وحقيقة الأمر أن الزنجيّ قبل أن يخبر الخادمات بالأمر كان قد توسّل بمعلمه أن يغني ويعزف للجميع بالقرب من الصندوق الدوار حتى لا يُحرج في وعده لهنّ ولا ينقض كلمته لهنّ، وأن كل هذا سيكون بمثاب هبة عظمى. لكن المعلّم لم يوافق مباشرة، بل ترك الزنجيّ يكيل له المديح ويتوسل لفترة من الزمن حتى رضخ أخيراً لطلبه. فما كان من الزنجيّ إلا أن احتضن معلمه وطبع قبلة على جبينه، دليل سعادته القصوى. في ذلك اليوم أتحفه الزنجيّ بأفضل غداء في البيت، بل من المؤكد أنه الأفضل حتى في بيت لوايسا نفسه.

عندما عمّ الظلام، في منتصف الليلة تقريباً، بدأت الجموع بالتحلق حول الصندوق، وشعر لويسا بوقع أقدام القافلة النسوية بالقرب من عرشه. فنزل المعلم حتى كوم التبن وقد دوزن غيتاره وضبط أوتاره ببراعة. هناك سأل لويس عن عدد السيدات الحاضرات. فأجابه بحضورهنّ كلهنّ ما عدا سيدة البيت فقد بقيت نائمة جوار زوجها وهو ما أزعج لوايسا، لكنه لم يُبدِ تذمّراً وبدأ العزف بناء على رغبة

تلميذه. ما أن راح غيتاره يعلوه بانغامه حتى رأى على وجه تلميذه الانشراح التام وسمع من خلف الصندوق الدوار حسرات السيدات اللاتي كُنّ يستمعن له.

ولكن ماذا يُمكن أن يُقال عنهنّ بعد سماعهنّ أغنية من (سُلوان المعشوق)(19) والتي طعّمها بموسيقى الثارابندا التي كانت حديثة العهد في إسبانيا؟(20). لم تبق عجوز لم ترقص ولا شابة لم يتقطّع قلبها أوصالاً، كل ذلك عملنَه بصمت وهدوء حتى لا يوقظن سيدهنّ، وقد تركن من الخادمات لمراقبة الوضع وتحذيرهنّ في حال استيقاظ العجوز. بعدها أغرقهنّ لوايسا بالأغاني الخفيفة المرهفة لينهي وصلته على خير ختام. لم ينتظر طويلاً حتى سمعهنّ يطلبن من لويس أن يعرفهنّ على هذا الموسيقي المعجزة. وهنا أخبرهنّ الزنجيّ أنه شحّاذ مسكين؛ لكنه أفضل الرجال اتزاناً ممّن عرفهم في كل أحياء إشبيلية الفقيرة. ولم يتأخرن عن طلبهنّ بأن يُتمّ معروفه وألّا يتركه يغادر المنزل طوال خمسة عشر يوماً، وسيتحملن بدورهنّ تزويدهما بالمؤن اللازمة. وسألنَه كيف تسنّى له أن يدخل البيت؟ وعن هذا السؤال الأخير لم يجبهنّ بكلمة، بل تركهنّ يتمعنّ بعمله، وكيف صنع ثقباً صغيراً في البوابة وأغلقه في ما بعد بالشمع. أما بقاؤه في البيت، فهذا ما سيحرص عليه أكثر منهنّ.

بعدها تحدث لهن لوايسا عارضاً خدماته عليهنّ عن طيب خاطر، فعرفن من فورهنّ أنهنّ لا يتحدثن مع شحّاذ فقير. وطلبن منه ألّا يبخل عليهن بالعزف والغناء في الليلة القادمة وسيحرصن على جلب سيدتهنّ معهنّ على الرغم من النوم القلِق لزوجها، وهو نوم قلِقٌ ليس عن شيخوخة، بل عن غيرة مقيتة. فأجابهنّ لوايسا أنهنّ لو شئن الاستماع له دون قلق من استيقاظ العجوز، فبوسعه الحصول على مسحوق لو مُزِج بالنبيذ سيجبره على النوم العميق أكثر من المعتاد.

«يا يسوع المسيح!»، أجابته واحدة من الجاريتين، «لو كان هذا حقيقياً فيا لسعادة القدر الذي جاء بك إلينا. لن يكون المسحوق لنومه فقط، بل سيكون مسحوق الحياة التي نرغب بها كلنا بما فينا سيدتنا ليونورا، زوجة العجوز، وهو الذي لا يتركها تحت شمس ولا في ظل، ولا يغضّ النظر عنها ولو للحظة واحدة. إيه يا سيدي، اجلب أنت المسحوق وليحمنا الربّ بحمايته! ولا تتأخّر عنا: اجلبه معك في المرة القادمة وأنا مستعدة أن أمزجه مع نبيذه وأقدّمه له بنفسي، وأرجو من الربّ العلي القدير أن يُنيمه لثلاث ليال هي بمثابة الجنة والنعيم لنا».

«سأجلبه عن طيب خاطر»، أجابها لوايسا، «وليكن معلوماً أنه لا يلحق ضرراً بشاربه غير الرغبة بالنوم العميق».

ترجّينه كلهنّ أن يُحضر المسحوق على وجه السرعة، مع الوعد في أن يقُمن بثقب آخر في الصندوق الدوار حتى تستطيع سيدتهن رؤيته، ومن ثم ودّعنه. أما الزنجيّ، وعلى الرغم من قرب طلوع الفجر، فقد رغب بدرس موسيقى، فاضطر لوايسا أن يجاريه اللعبة ويخبره أن لا حاجة لكل ذلك فهو لم يعثر على تلميذ له أذن مرهفة مثله، فصدّقه الزنجيّ المسكين مع العلم أن ليس له شأن لا في العِير ولا في النفير!

(21)

أما عن لوايسا فقد تواعد وأصحابه على أن يكونوا قريبين منه، فكانوا يتواجدون كل ليلة قرب بوابة البيت يستمعون له ويكونون قريبين منه في حال الاحتياج لأي شيء منهم، خاصة وأنهم اتفقوا بينهم على إشارة محدّدة تفي بالغرض. عندما علم لوايسا بوجودهم تلك الليلة، اقترب من الثقب الذي عملوه تحت البوابة وأعلمهم على وجه الاختصار بما آلت إليه الأمور. ثم طلب منهم أن يعثروا له على ما يساعد على تنويم سيّد البيت كاريثالس، فقد علم بوجود مسحوق يفيد بذلك. فأسرّه أحدهم أن له صديق طبيب وسيطلب منه علاجاً للأمر، وألّا يقلق وليستمر في محاولاته وسيعاودون رؤيته الليلة التالية. ثم تودعوا.

عندما حلّت الليلة، اقتربت جوقة الفواخت لتطالب بمعزوفات

الغيتار. وقد جاءت معهنّ ليونورا المرتجفة هلعاً من أن يستيقظ زوجها. لهذا السبب لم ترغب بالنزول معهنّ ولم تلِن حتى سمعت أوصاف ما شهدته وصيفتاها وكذلك ما ذكرته لها القهرمانة عن رقّة الموسيقى وعن تطوع الموسيقيّ الفقير الملهم (وصفته لها وهي التي لم تره بعد وقد وضعته في مكانة أورفيوس وآبشالوم) (22) مما أقنعها أخيراً وعملت ما لم تعمله قبل اليوم أو تفكّر بعمله. في البداية ثقبن الصندوق الدوار البريمة للتمتّع برؤيته، وهو الذي لم يبق بهيئته القديمة كمغنٍّ بائس، بل ارتدى سروالاً واسعاً من التفتا المقصّبة على موضة البحارة، وجُبّة ن القماش نفسه مطرزة بالخيوط الذهبية مع قبعة باللون نفسه، وقميصاً برقبة منشّاة منقط القماش ومطرزاً، وكلها قد أحضرها معه في عليقته تحسّباً ليوم مثل هذا.

كان الشاب حسن الهيئة، ولما كنّ طوال الوقت متعودات على النظر للسيد العجوز لا غير، فقد بدى لهن لوايسا بمظهر الملاك. فتقاطرن واحدة بعد الأخرى لرؤيته من ثقب الصندوق الدوار، وحتى يرينه بدقّة، فقد مضى الزنجيّ العجوز يمرّر الشمعة عليه من فوق إلى أسفل. وبعد أن شاهدنه كلهنّ بما فيهنّ الزنجيّات الخادمات، حمل لوايسا غيتاره وراح يغني لهنّ طوال الليل وقد أصابهن السرور والبهجة. بل توسّلن كلهن، الشابّات والمرأة العجوز بإلحاح من الزنجيّ

العجوز أن يجد الوسيلة والحيلة المناسبة لإدخال سيده الموسيقيّ عليهن ليستمعن له وينعمن برؤيته عن قرب، وكل هذا حتى لا يفقدن البوصلة والرشد من أن يكنّ بالقرب من السيد العجوز حتى لا يفاجئهن متلبسات بالجرم، وهذا لن يحصل فيما لو خبأنه داخل البيت.

لكن سيدتهن ليونورا اعترضت على ما يحاولن عمله، وقالت إنها تكتفي برؤيته وسماعه من مكانها توخّياً للسلامة وصون الشرف.

«عن أي شرف تتحدثين؟»، أجابتها القهرمانة، «فتى الملك يضيق ذرعاً بالشرف. لتظلّي محبوسة أنت مع عجوزك متوشالح (23)، ودعينا نتمتع نحن بقدر ما نستطيع، خاصة وأنني أرجو أن يكون السيد على خلق وشرف ولا يطمع منا بشيء خلاف ذلك».

«سيداتي الفاضلات»، تكلم لوايسا، «لم أقدم إلى هنا سوى لخدمتكنّ بروحي وحياتي، وما عملي هذا سوى ردّ فعل على ما تعشنه من عزلة وضيق في حياة تتبعثر من بين أيديكن. وقسماً بحياة والدي، أنا رجل بسيط ووديع وطيّب الأصل، ولن أقوم بأيّ فعل سوى ما تأمرنني به؛ «يا معلم أجلس هنا وأمض هناك وتعال هنا وأذهب إلى هناك!»، وهذا ما سأعمله مطيعاً ككلب ملك فرنسا» (24).

«ما دام الأمر ما تقول»، أجابته ليونورا البريئة، «فما هي الطريقة المناسبة لدخول المعلم؟».

«حسناً»، قال لوايسا.

«لتعلمي سيادتك أن علينا أن نطبع المفتاح على قطعة من الشمع لنستطيع فتح البوّابة الوسطى، وسيكون عندنا نسخة منه قبل ليلة الغد».

«وبهذا المفتاح»، أضافت إحدى الوصيفتين، «نستطيع فتح جميع الأبواب المتبقية».

«سيكون شيئاً رائعاً فعلاً». قال لوايسا.

«هذا حقيقة»، قالت ليونورا، «ولكن قبل ذلك فليُقسم لنا هذا

السيد أنه لن يقوم بفعل شيء عكس إرادتنا، وكل ما نريده منه هو أن يغني ويعزف لنا، وأن يبقى مختبئاً في المكان الذي نشير له عليه».

«أُقسم على ذلك». رد لوايسا.

«لا قيمة لقسمك، عليك أن تحلف بحياة أبيك وبالصليب الذي عليك تقبيله أمامنا».

«أقسم لكُنّ بحياة أبي وبعلامة الصليب هذا الذي أقبّله بفمي

القذر» (25).

وصنع صليباً بإصبعيه ثمّ قبله لثلاث متتابعات.

هنا ذكرته واحدة من الوصيفات:

«ولا تنسَ أيها السيد» أن تجلب لنا ما أخبرتنا عنه من المسحوق حلّال العُقد كلها».

بهذا انتهى حديث تلك الليلة وقد سعد جميع من حضر الحفل. ولأن الحظ كان مرافقاً للوايسا، فقد حضر تلك الساعة، وقد أزفت الثانية فجراً، شلة صحبه بإشارتهم المتفق عليها وهي العزف على بوق باريسي (26). حدثهم عما جرى بالتفصيل وما ينوي عليه، وطالبهم بالمسحوق أو أي شيء آخر يساعد على تنويم كاريثالس كما التمسه منهم آخر مرة، وفي الوقت نفسه عن إمكانية نسخ مفتاح عن طبعة على قطعة شمع. أخبروه أن المسحوق أو المرهم الدهني سيجلبونه الليلة التالية، وأن له مفعولاً مدهشاً ما أن يُطلى به رسغ المرء أو موضع شرايينه، ولن يفيق لمدة يومين ما لم يُغسل الموضع غسلاً جيداً بالخلّ. أما المفتاح فلا داعي للقلق لأنهم يستطيعون نسخه بسهولة. وبهذا تركوه ومضوا لحال سبيلهم.

نام بعدها لوايسا وتلميذه لما تبقى من الليل، متأملاً أن يفوا بوعدهم

ويجلبوا له المفتاح كما وعدوا. ولكن كان عليه أن يتحمل ثقل الوقت وبطئه حال الآخرين مثله، بانتظار حدوث شيء ما.

عندما قدمت ساعة اللقاء المرتقب قرب الصندوق المدور لى الساعة الليلية المعتادة، حضرت خادمات المنزل صغراهن وكبراهن، البيضاء منهن والزنجيّة، وقد تملّكتهن رغبة رؤية المعلّم داخل السراي الخاص بهنّ. لكن ليونورا لم تحضر معهنّ، وعندما سألهن لوايسا عن السبب، أخبرنه أنها مضطجعة على الفراش مع زوجها وقد أغلق عليهما باب الحجرة، وبعد أن أغلقها احتفظ بالمفتاح تحت مخدّته. وقد أسرّتهن أنه ما أن يغطّ بنومه ستسعى جاهدة للحصول على المفتاح وطبعه على قطعة شمع طرية أعدتها لهذا الغرض، وسيقُمن باستلامها بعد قليل من فتحة ضيّقة تحت الباب(27).

ازدادت دهشة لوايسا لغيرة وحرص العجوز، لكنه لم ينهزم أو تفتر همّته. وهنا سمع زعيق البوق الباريسي، فعاد لموضعه فوراً. وجد أصحابه بانتظاره وسلموه علبة المرهم التي شرحوا له استخدامها. طلب منهم الانتظار قليلاً حتى يجلب لهم نسخة المفتاح الشمعية. ما أن عاد حتى أخبر القهرمانة التي كانت أشدّ الجميع تشوقاً لدخوله عليها، أن تحمله لسيدّتها ليونورا، وشرح لها فوائده وما عليها أن تقوم به. وهذا ما قامت به من فورها. وعندما وصلت موضع الثقب وجدت ليونورا

منطرحة على الأرض ووجهها ملتصق بالأرضية تراقب من الفتحة عن قرب.

رقدت القهرمانة على الأرضية بوضعية ليونورا نفسها وراحت تحدّثها موجّهة بوزها مباشرة إلى الأذن بصوت خفيض عن المرهم وكيفية استخدامه. تناولت ليونورا العلبة وأخبرتها أنها لم تنجح بالحصول على المفتاح لأنه لم يخبّئه تحت المخدة كما اعتاد أن يفعل، بل بين حشيتي السرير وتحت النصف الذي ينام فوقه تماماً. «ولكن أخبري المعلم إذا كان المرهم الذي جلبه له المفعول الذي يتحدث عنه فعلاً، بإمكاني أخذ المفتاح المرّات التي نحتاج لها ولا داعي لنسخه». وطلبت منها أن تنتظر إشارتها، لترى معها إن كان المرهم يقوم بمهامه لأنها قد قرّرت أن تدهن به كل مواضع شرايينه.

هبطت القهرمانة لتخبر المعلم لوايسا بما جرى، وليقوم هو بدوره بصرف أصحابه لأنه لم تعد هناك من حاجة لنسخ المفتاح. عندها اقتربت ليونورا بحذر ولكن بتصميم حابسة الأنفاس ومرتجفة قليلاً لتقوم بدهن أكثر من موضع قرب شرايينه، كذلك عند فتحتي أنفه الذي ارتجف هو الآخر لتصابُ الزوجة بالهلع للحظات مرّت عصيبة عليها قبل أن تنتهي من دهن كل المواضع الضرورية وكأنها تقوم بتحنيط جسده لدسّه في قبره.

لم يمرّ وقت طويل حتى بدأ المرهم يقوم بمفعوله المُرتجى، وقد لاحظته من علامات دالة أهمها شخير العجوز المتعالي الذي وصل صفيره حتى الشارع، وكان بمثابة موسيقى في مسامع الزوجة ألذّ وأشدّ عذوبة على قلبها من موسيقى المعلم والزنجيّ. ولكي تتأكد مما تراه، اقتربت من زوجها وراحت تضغط عليه بيدها قليلاً، ومن ثم أكثر وأكثر لترى إن كان يستيقظ. بل تجرأت أكثر وهي تقلّبه ذات اليمين وذات الشمال دون أن ينهض من نومه. عندما رأت الأمر بهذه الصورة، اقتربت من الثقب وبدلاً من أن تتحدّث بصوت واطئ، صرخت بالقهرمانة التي كانت تنتظرها على الجانب الآخر:

«البشارة يا أُختيّ، كاريثالس ينام نومة أهل الكهف!»(28).

«وما الذي يجعلك تنتظرين أكثر يا سيدتي؟ هاتي المفتاح لأن المعلم ينتظر منذ ساعة».

«اهدئي يا أُختيّ، ها أنا أمضي بحثاً عنه». إجابتها ليونورا

وما أن عادت إلى الفراش ودست يدها بين حشيتي السرير حتى وجدته أسفل الجزء الذي ينام عليه العجوز. وما أن أصبح بيدها حتى راحت تنطّ من الغبطة، ودون أن تنتظر أكثر فتحت الباب ومن ثم أعطته لقهرمانتها التي شعرت أنّها أسعد امرأة في العالم.

أمرتها ليونورا أن تفتح للموسيقي وأن تقوده إلى الصالة، لأنها مازالت حتى اللحظة تحت تأثير الرهبة مما حدث من أشياء، وأوصتها أن تطلب منه مجدداً القسم على الإيفاء بما قاله لهنّ قبل أن تدعه يدخل.

«وهو كذلك»، أجابتها وصيفتها «لن أسمح له بالدخول ما لم يُقسم أولاً ويقبّل الصليب ست مرات.

«ليقسم ويقبله بما يرغب ولا تجبريه على عدد المرات، المهم أن يحلف بحياة أبويه وكلّ غال عنده كي نكون بمأن بوجوده ونتعم بسماع موسيقاه وغنائه دون تفكير بأي شيء آخر خارج إرادتنا».

رفعت القهرمانة تنورتها واتجهت إلى حيث الصندوق والجميع بانتظارها، وهنا بشّت فرحة وهي تلوّح لهن بالمفتاح. وكان من سعادة وانشراح الخادمات أنهنّ قُمن بالتطويح بها عالياً وكأنها أستاذة جامعية مع هتافات «تعيش وتحيا!»، وازداد هتافهن بعد أن علِمن أن لا حاجة لنسخ المفتاح ما دام المرهم يقوم بمفعوله ويسمح لهن بعمل أي شيء كما يرغبن.

«لتفتحي يا صاحبتي الباب ولننعم برؤية المعلم الذي أظن أنه قد طال انتظاره ولنشبع من عذوبة ألحانه». هتفت إحدى الوصيفات.

«لنجعله أولاً يعيد قسمَه مثل الليلة الماضية قبل أن يدخل علينا».

«إنه من الطيبة ولن يماطل بالحلف مجدداً». أجابتها إحدى الخادمات.

فتحت القهرمانة الباب وتركته موارباً لتنادي على لوايسا، وكان قد سمع حديثها كله من ثقب الصندوق، وأراد أن يدخل مباشرة من البوابة، لكنها صدّته بوضع يدها على صدره، وقالت له:

«لتعلم سيادتكم أيها السيد المبجل، أن الربّ وضميري شاهدان على ما أقول، إن جميع من في البيت عذراوات كما خرجن من بطون أمهاتهن ماعدا سيدتي. وأنا وإن بديت لك بالأربعين من عمري، إلا أنني في الواقع لم أكمل الثلاثين، فما زال أمامي شهران ونصف الشهر لإتمامها. ولسوء حظي أنني ما زلت عذراء مثلهن، وشكلي كعجوز بسبب الشغل المهلك وجهد العمل خلال سنين طويلة. لهذا لن أسمح لك لقاء سماعنا لأغنيتين أو ثلاث أو أربع على الأكثر أن نفقد بها عذرياتنا المُصانة، أعلمك أن حتى هذه الزنجيّة التي اسمها جيومار ما زالت عذراء كما جاءت للدنيا. لهذا يا سيد قلبي عليك قبل دخولك لمملكتنا أن تُعيد القسم الذي طلبناه منك الليلة الماضية. وإذا وجدت ما نطلب منك يُعدّ كثيراً، فلتعلم أن ما سنراهن عليه أكبر بكثير. وبما أن جنابكم قد جاء بحسن نيّة، فلن يضيره أن يقسم لنا بما نريد.

«ما أروع ما تقولينه سيدة ماريا ألونسو»، أجابتها إحدى الوصيفات، «وما أدق كلماتك المتزنة الصائبة، وأنا معك في ما تقولينه، وإذا أراد السيد الدخول فليُقسم الآن أمامنا».

وهنا رطنت الزنجيّة جيومار وهي الجاهلة بالتعبير السليم:

«أنا أقول ليدخل ونفضّ القضية، الشيطان معه حتى لو حلف ألف مرة، ما أن يدخل حتى ينسى كل شيء»».

استمع لوايسا لخطبة السيدة ماريا ألونسو بكل هدوء، وهنا أجابها بكل رصانة وثقة:

«لتعلمن شقيقاتي وصاحباتي أن لا غرض لدخولي ها هنا إلا لمتعتكنّ وتسليتكنّ، وهذا هدفي ولن يتغير منه شيء ما دام هو ما ترغبن به. ولو أنني تمنيت لو وثقتنّ بي أكثر لأنني لا أنقض كلمتي وعهودي، وما ترينه تحت هذه الثياب البالية المهلهلة إن هو إلّا روح شريفة مهذّبة. ولكنّ حتى أزيل من نفوسكنّ كل شك ممكن، أقسم كرجل مسيحي صالح وبقدّيس جبل لبنان وكل ما تخبئ حكايات شارلمان من أسرار، وبروح العملاق فيربراس، أنني لن أخالف ما صدر منكن من تعاليم وأوامر، وكل ما يجيء مخالفاً لما أقول أنما مصيره الخذلان والعار» (29).

ما أن انتهى من قسمه حتى صرخت واحدة من المحظيات هائجة مما سمعته على لسان لوايسا:

«هذا قسم يفتّت الصخر. به لا تدخل بوابتنا فحسب بل قادر على اجتياز كهوف «كابرا (30) نفسها!»».

ما أن تلفّظت بكلماتها حتى جرّتهُ من قميصه، فوجد نفسه محاطاً بهنّ كلهنّ. بعدها مضى ليحيّي سيدة البيت التي كانت في حراسة زوجها الغافي. وعندما أخبرتها الخادمة أن الموسيقيّ قادم لتحيّتها، انتفضت وارتبكت وسألتها فيما لو أقسم من جديد. فأجابتها أنه قد أقسم قسماً لم تسمع أفضل منه بحياتها.

«ما دام قد حلف»، قالت ليونورا، «فقد أصبحنا بأمان... لا علم لي كيف خطرت ببالي فكرة القسم!!»

وما أن قالت جملتها حتى رأت الجميع عندها، الموسيقيّ في المنتصف يُحيطانه تلميذه الزنجيّ وجيومار الخادمة. ثم ما أن لمح لوايسا سيّدةَ البيت ليونورا حتى انحنى بكامله دليل تقبيله ليديها. وهي صامتة وبإشارة منها طلبت منه النهوض، بينما صمت الجميعُ خشية أن يستيقظ سيّد البيت. وعندما لاحظ لوايسا جوّ التجهّم والرعب المسيطر عليهنّ، أخبرهنّ أن يتكلمن براحة، فمفعول المرهم على السيد،

دون أن يقتله، يجعله والميت سواء.

«هذا ما أعتقده أيضاً»، قالت ليونورا، «لأنه على صياحنا يكون قد استيقظ عشرين مرة، فهو خفيف النوم بالعادة، ولكنني بعد أن دهنته بالمرهم صار يشخر مثل بهيمة».

«ما دام الأمر كذلك» قالت القهرمانة «فلنمضِ كلنا إلى تلك الصالة المواجهة ولنرتَح قليلاً ونطرب لسماع السيد الموسيقيّ».

«هيا بنا ولتبقَ جيومار هنا لتراقب فيما لو يستيقظ كاريثالس». أمرت ليونورا

فأجابتها جيومار على الفور:

«السوداء للحراسة والبيضاء للمتعة! ليغفر الرب للجميع!».

ما أن انتقل الجمع إلى الصالة البهية، باستثناء الزنجيّة جيومار، فقد توسطهنّ الموسيقيّ وتحلّقن حوله على البُسط والوسائد المريحة. هنا حملت ماريا ألونسو شمعة مشتعلة راحت معها تتأمل لوايسا من الأعلى على الأسفل، وهنا ندّ عن إحداهن «يا لروعة شعره وخصلاته السائبة»، وجارتها أخرى قائلة: «يا لبياض أسنانه وكأنها حبات صنوبر معقودة، لم أرَ أجمل منها وأروع»، وأكملت أخرى «يا للعينين الساحرتين، بحياة أمي، يبدوان خضراوين مثل زمردتين». هذه تتمعّن

بقدميه وتلك بفمِه حتى شرّحن كل أجزاء جسده. كانت ليونورا الوحيدة الصامتة وهي تنظر له خلسة وقد أدركت الفارق الشاسع بين غضارة عوده وعود زوجها المتيبّس.

بهذا قامت ماريا ألونسو وخطفت الغيتار الذي يحمله الزنجيّ ووضعته بين يدي لوايسا، ورجته بشدة أن ينشدهن أغنية كانت شائعة آنذاك في إشبيلية والتي يقول مطلعها:

أمّاه يا أمّاه

لا تضعي عليّ حراساً.

لبّى لوايسا من فوره طلبها وبدأ العزف. نهضن جميعاً وبدأن بالتمايل والرقص، وأنشدت ماريا ألونسو بصوت بديع تلك الأغنية التي تقول:

أمّاه يا أمّاه

لا تضعي عليّ حراساً.

إذا لم أحرص على نفسي

فلن يمنعني سجاني شيئاً.

يقولون إن كل شيء مكتوب

وهذا حقيقة

فالحرمان

يوقظ الشهية

وينمو بلا نهاية

الحب المسجون.

لهذا من الأفضل

أن لا تحبسيني.

إذا لم أحرص على نفسي

فلن يمنعني سجاني شيئاً.

إذا كانت الإرادة

غير كافية

فلن يكفيها وجود الحارس

لا الخوف ولا الزنزانة.

وستتحطم دون شك كل القيود

ففي الموت نفسد

سأعثر على حظي.

الذي لن تدركينه:

إذا لم أحرص على نفسي

فلن يمنعني سجاني شيئاً.

من لديه العادة

أن يكون محبّاً،

كالفراشة

سوف تلاحق نيرانها،

ولن يمنعها من التحليق

كتيبة من الحراس،

قلتم أم لا

كل ما تريدون:

إذا لم أحرص على نفسي

فلن يمنعني سجاني شيئاً.

بهذه الطريقة

القوة المُحبة

الرائعة

تمضي إلى محرقتها:

بصدر من الشمع،

ورغبة تتوق للنيران

بأيدٍ من الصوف

وقدمين من اللباد:

إذا لم أحرص على نفسي

فلن يمنعني سجاني شيئاً.

وما أن وصلن بالغناء والرقص حتى نهايته تقودهن المعلمة ماريا ألونسو، حتى دخلت عليهم جيومار الحارسة مرتعبة تصطكّ قدماها هلعاً وكأن الفالج قد أخرسها وشلّ ذراعها. وبصوت مشروخ واطئ النبرة صرخت محذرة:

«السيّد يستيقظ، سيدتي يا سيدتي... السيّد يستيقظ، نهض وقادم إلى هنا!»».

ومثل جوقة حمام يلتقط بهدوء ودعة من الأرض ما تمنّ به الأيدي الغريبة فيفاجئه دويّ بندقية يطير مرعوباً مشوشاً متناسياً ما التقطه من حبّ في منقاره، هكذا أصبح أمر الجوقة من راقصات مائلات عندما وصلهن الخبر المفاجئ على لسان جيومار. كل واحدة منهن انشغلت بالبحث عن طريقة لنجاتها في مكان تختبئ به قبل وصول العجوز، وقد تركن الموسيقي المسكين -وقد رمى الغيتار وكف عن الغناء- حائراً مرتبكاً في مكانه لا يلوي على شيء.

أما ليونورا فراحت تفرك بيديها الجميلتين حائرة، بينما شرعت ماريا لويسا بلطمها على وجهها لإيقاظها من غفلتها. وإزاء كل هذا الهرج والخوف والهلع، قامت القهرمانة وهي الماكرة الداهية بكلّ رباطة جأش وأمرت لوايسا أن يختبئ في غرفتها، وستظلّ هي وسيدتها في الصالة ولن تحير عن اختراع أسباب مقنعة عندما يقتحم عليهن الصالة الزوج الغيور.

اختبأ لوايسا، ولما انتظرت ماريا ألونسو حركة أو صوتاً ما ولم يصلها شيء، تنفسّت الصُعداء قليلاً، وشيئاً فشيئاً استردت أنفاسها واقتربت رويداً من غرفة السيد ولمحته غافياً في فراشه يرن بشخيره مثلما تركوه

بادئ الأمر. وعندما تأكّدت من نومه، شمّرت عن تنورتها وعادت راكضة لتزفّ البشرى لسيّدتها التي وجدتها قد رُدّت إليها العافية.

ولم تشأ القهرمانة أن تضيّع الفرصة من يديها، فقبل كل شيء عليها أن تستمتع بمحاسن الموسيقيّ لوحدها. فطلبت من ليونورا أن تظلّ في الصالة ومضت تنادي على الموسيقيّ الذي وجدته في مخبئه، مهموماً ينتظر إطلالة العجوز الغيور. وقد لعن في نفسه خداع المرهم وخداع أصحابه، فقد كان عليهم أن يجرّبوه مع آخر قبل أن يدهنوا به السيد كاريثالس.

بهذا دخلت عليه القهرمانة وأكّدت له أن العجوز يغط بنومه، بل وأكثر: إذ مضت ماريا لويسا تلهبه بما يجول في مشاعرها من ودّ ورغبة، وعندما أدرك لوايسا مطالبها الخبيثة، فكّر أن يستغلها للوصول إلى قلب سيدتها. وبينما كان الاثنان يتناجيان حتى خرجت الخادمات كل واحدة من مخبئها وقد انتشرن هنا وهناك في أرجاء الدار، وعُدن بهدوء إلى الصالة بعد أن يئسن من سماع صوت، فعلِمن في الحال أن السيد ما زال في نومته. وعندما سألن سيدتهنّ عن الموسيقيّ والقهرمانة أخبرتهن أين ينبغي أن يكونا. فاقترن بالهدوء نفسه ليستمعن ما يقال خلف بوابة غرفة ماريا ألونسو.

ولم تتخلّف الزنجيّة جيومار عن الحشد، بينما غاب عنهنّ الزنجيّ

العجوز لأنه نطّ من فوره حاملاً غيتاره واختبأ في تلّ التبن وقد تغطّى بشرشف سريره البالي مرتعداً من خوفه، مع ذلك لم يترك اللعب على أوتار الغيتار وكأن شيطان الموسيقى قد غرّه تماماً. عندما علمت خادمات البيت بنوايا القهرمانة، لم يعترضن عليها ولم يُخرجن من أجوافهن أقذع السباب المعروف عندهن لعلمهن بنفوذها في البيت وقدرتها على عمل كل شيء، لهذا صمتن ولم يقُلن أي شيء. أما أشد الكلام ظرافة ووقعاً على الجميع فهو ما سمعنه من الزنجيّة جيومار، البرتغالية بلكنتها الإسبانية، فلم تترك شيئاً لم تقله وإن جاء مشوشاً ومختلطاً بنبرات عديدة.

أما ماريا لويسا وقد أذهب بلبّها عشق الموسيقيّ واستوطن خيالهُ في روحها وعظامها وكل كيانها، فقد وعدته أن تقوم بكل ما بيديها لإقناع سيدتها. وعندم وجدتها محاطة بكل خادماتها، أمرتهن أن يمضين إلى غرفهن لتبقى لوحدها مع سيدتها، فلهن ليلة تالية للتمتع بموسيقى وغناء لوايسا بعد أن خسرن هذه الليلة خوفاً وهلعاً.

أما القهرمانة فبقيت مع سيدتها لوحدها وبكل دهائها وحججها الجاهزة، راحت تحدّثها عن لوايسا الموسيقيّ وتشيد بحسنه ورقّته ومفاتنه، وراحت تصور لها الفرق بين الشاب الطريّ عن زوجها المُسنّ، وتفنّنت بتصوير المتع التي ستحصل عليها وما ستنعم به من

نعيم في أحضانه وقد ساهم الشيطان بأن سهّل على لسانها من أوصاف وتزويقات لانت لها ليونورا وهي التي كانت تظن روحها من صخر جلمود! «أه منكنّ أيتها القهرمانات اللاتي ولدتنّ للخراب والفتك بالمحصنات والإطاحة بأشد النوايا الطاهرة العفيفة، أيتها الدواهي القادرات على تدنيس وسائد السادة الأشراف بألاعيبكنّ النجسة!».

وأخيراً لانت ليونورا لكلام القهرمانة وأخرجتها من طوقها بمعسول الكلام والخداع، وقد أحبطت بذلك كل احتياطات كاريثالس وتحذيراته، غافياً عن شرفه في نومته المميتة.

عند هذا الحدّ أمسكت ماريا ألونسو بيد ليونورا وقادتها بإلحاح رغم الدموع المنهمرة من عينيها إلى غرفتها حيث ينتظرها لوايسا. ثم باركتهُما بضحكة شيطان مستهتر، وأغلقت عليهما الباب. ثم مضت إلى الصالة لتستريح على الوسائد انتظاراً لفرصتها المزعومة. ولما كانت في حاجة إلى الراحة، بسبب سهر الليالي الماضية، فقد داهمها النعاس وغفت حالاً.

لو لم يكن كاريثالس غاطّاً في نومه لسألناه عن جدوى احتياطاتِه وحذرِه وغيرتِه وأسوارِ بيته العالية. عن عتبتها التي يتباهى بعدم اجتيازها من قِبل خيال ذكر، وعن الصندوق الدوار والجدران السميكة والنوافذ الموصدة والعزلة المطبقة. وعن المبلغ الكبير الذي

نقّده مهراً لزوجته وهداياه التي لا تنتهي، وعن كرمه ومعاملته الحسنة لجواريه وخادماته وتلبيته لكل ما يرغبن به. لكن من المؤسف أننا لا نستطيع أن نسأله سؤالاً كهذا، لأنه كما يعلم الجميع كان يغطّ في نوم لا مثيل له. ولكن لو افترضنا أن كلماتنا تصلُ له ويستطيع الردّ عليها، لما فعل غير هزّ الكتفين وعقد الحاجبين تلعثماً وارتباكاً، ولأجاب: «لقد ذهب كل شيء مع الريح، وقد أطاح بكلّ آمالي شابّ آثمٌ عابث، وغدرُ قهرمانةٍ زائفة، وغفلة شابّة لم تميّز الأمور بتبصّر وروية». ليخلّصنا الربّ من شرور الأعداء الذين لا يحفلون بدرع الرجاحة ولا يؤثر فيهم سيف العفّة القاطع.

ورغم كل شيء، أظهرت ليونورا من معدنها الأصيل ما ينمّ عن عفّتها وأصلها، فقد دافعت عن نفسها ضدّ هجمات المكّار المخاتل، ولم يستطع إقناعها والفوز بها فعدل عن الأمر وانهزم بعد أن أفرغ طاقته وجهده كله بإقناعها لينتهي الاثنان، من شدة الإعياء، نائمَين في مكانهما على أرضية الحجرة.

عند ذاك، وبإشارة إلهيّة استفاق كاريثالس وكأنّ مفعول المرهم قد انتهى تماماً، فراح يتحسّس السرير كعادته. وإذ لم يعثر على زوجته بجواره، فقد قفز من سريره برشاقة لا تُناسب عمره، مهموماً مفكّراً. وجال بنظره في الغرفة لكن لم يرها، ونظر على الباب فوجده مشرعاً

وقد اختفى المفتاح الذي دسّه بين حشيتي السرير. كل ذلك جعله يفقد رشده. لكنه استرجع أنفاسه قليلاً وخرج حتى الصالة يجرّ قدميه بخفّة حتى لا يشعرون بمروره، ووجد هناك القهرمانة نائمة لوحدها ولا أثر لليونورا. فمضى من فوره حتى حجرة القهرمانة وحالما فتح الباب، تفاجأ بما لا يمكنه تخيّله أبداً ولا أن يتصور نفسه يراه ذات يوم: رأى ليونورا زوجته في أحضان لوايسا، كلاهما غافٍ وكأن المرهم قد دهنهما هما وليس العجوز الغيور.

شحب وامتقع كاريثالس وانحصرت الصرخة عالقة في حنجرته، تهدلت ذراعاه وجمد وكأنه تمثال من مرمر بارد. ومع أن الغضب قد نال منه وأيقظ حواسه كلها، إلا أنه بقي مشلولاً تضيق عليه أنفاسه. ولو كان بيده مسدس لانتقم لنفسه وشرفه مباشرة. هنا خطر له أن

يعود إلى غرفته ليجلب خنجراً ويريق دم عدويه اللذين دنّسا شرفه. بهذه الهمة الشريفة الواجبة عاد بصمت إلى غرفته، ولكنه ما أن بدأ البحث حتى داهمه وجع وألم شديدين في صدره، وضيق مقتدر شلّه تماماً وتركه مغمى عليه في مضجعه.

ما أن قدم النهار وقد كشف عن العابثَين في شباك عناقهما، حتى استيقظت ماريا ألونسو ورغبت أن تجرّب دورها حسب ظنها، لكنها أعرضت وقد رأت أن الوقت داهمهم لتترك نيّتها لليلة قادمة.

أما ليونورا وقد استيقظت مرعوبة فزعة، لعن تهاونها بالأمور ولعنت قهرمانتها الرجيمة، ثم راحت بصحبتها حتى غرفة زوجها راجية السماء أن يكون غافياً حتى الآن. عندما رأته منطرحاً على الفراش حمدت حظها وتعانقتا بفرح.

بعدها اقتربت ليونورا من زوجها وحركت من ذراعه وحركته من جانب إلى آخر لترى كيف يمكنها أن توقظه وفيما لو تحتاج فعلاً إلى مسحِه بالخلّ. لكن كاريثالس بتحريك زوجته له، عاد إلى وعيه بعد إغماءته الطويلة، تنفس بعمق وبصوت شاكٍ منهك قال:

«يا لشقائي، ومرارة المغبّات التي جلبَتها عليّ ثروتي!».

ولما لم تفهم ليونورا ما كان يردّده زوجها. وقد رأته مستيقظاً يتحدّث، فكّرت أن مفعول المرهم ليس مثلما قالوا عنه. رفعته قليلاً بحيث التقى وجهه بوجهها وقالت له وهي تحتضنه:

«ما علتك؟ وما الذي تشكو منه يا سيدي؟».

سمع العجوز المفجوع صوت عدوّته المرهفة ففتح عينيه بمشقّة، مذهولاً ومتيبساً، ثم رمقها بنظرة ملحاح دون أن يتحرّك له جفن ولا هدب. في النهاية استجمع قواه وأمرها:

«اعملي بي معروفاً واطلبي حضور والديك لأنني أشعر أن قلبي

المتعب على وشك التوقف، وأحسّ أن نهايتي قريبة ورغبتي هي أن أراهما قبل أن يتوفاني الربّ».

دون شكّ، صدقت ليونورا ما قاله زوجها، وفكّرت أن قوّة المرهم لا بدّ وأن أجهدته وسارعت بمرضه. وفي الحال أمرت الزنجيّ أن يمضي لاستدعاء والديها. ثم راحت تداعب زوجها بشكل لم تقُم به قبل اليوم، وهي تسأله عمّا يشعر به بكل رقّةِ وعذوبةِ الكلمات كما لو أنه حبّها الأكبر في هذا العالم. أما هو فكان ينظر لها ويحسّ بكل كلمة تقولها له وكأنها نبلة تخترق روحه.

أما ماريا ألونسو فقد تبرّعت بإخبار أهل البيت ولوايسا بمرض

سيدها. وفي فوضى انشغال الجميع، نسوا إغلاق بوابة الدار عندما خرج الزنجيّ لاستدعاء والدي ليونورا الذين بدورهما قد اندهشا للطلب الغريب، خاصة وأنهما لم يدوسا ولو لمرة واحدة عتبة الباب منذ زواج ابنتهما.

كان الجميع صامتاً متفكراً لا علم له بما اعترى سيد البيت الذي كان يحاول جاهداً بكل قواه ليظلّ بوعيه وهو يجترّ الأنفاس بصعوبة وحرقة كبيرتين كما لو كان يقتلعها من روحه.

بكت ليونورا وهي تستعرض قدرها، بينما علَت محيّاه ابتسامة لظنّه أنها تذرف دموعاً كاذبة.

في تلك الإثناء وصل والدا ليونورا، وعندما وجدا بوّابة البيت مشرعة والدار في صمت مطبق، اعترتهما الرهبة والخوف. فدخلا من فورهما حتى مخدع صهرهما ووجداه كما قلنا بعينين مصوّبتين في عيني زوجته وقد أمسكته من يده وعيون الاثنين تفيض بالدمع؛ هي لمرضه المفاجئ، وهو اعتقاداً منه بزيف ادّعاءاتها.

وعندما رأى دخول والدي ليونورا، ابتدأ كاريثالس بالكلام:

«ها قد حضرتما أخيراً، أطلب من الآخرين الخروج من المخدع، ولتبقَ السيدة ماريا ألونسو فقط».

أطاعه الجميع ولم يبق سوى خمستهم في المخدع. لم ينتظر أن يسأله أحدٌ منهم، واستمر كاريثالس بحديثه بصوت مبحوح وهو يمسح عينيه من آثار الدموع:

«صهريّ العزيزين لقد بعثت بطلبكما لتكونا شاهدين عمّا سيصدر مني. تعرفان ولا أريد أن أذكّركما (لأنه من المحال أنكما نسيتما الأمر) عن الفترة التي مضت بزواجي من ابنتكما والتي تزيد عن عام وشهر وبضعة أيام وساعات أخرى وهبتُ فيها روحي بكل التضحيات الممكنة. وتعلمان أيضاً مدى سخائي بدفع مهرها الذي فاق ثلاثة أضعاف ما يمكن أن يدفعه أغنى الأغنياء. كذلك لم تنسيا مدى تحوّطي باختيار

الملابس والزينة التي رغبَت بها وطلبَتها، وجهّزتُها بكل شيء أمرت به. ولا شيء آخر أضيفه سادتي عما تعرفونه من غيرتي وحرصي بالحفاظ على جوهرتي وصونها من كل شرّ، فجرّبت كل ما بيدي رغم غرابة ما حدث لي في سنيّ عمري الطويلة؛ إذ علّيت أسوار بيتي وسددتُ النوافذ المطلّة على الشارع وربطت البيت عبر صندوق دوار كأننا في دير، وطردتُ منها كل ما يمكن أن يشير لشيء ذكوري من قريب أو بعيد. ووضعت بخدمتها من الوصيفات والعبيد، ولم أبخل لا على الزوجة ولا عليهنّ في كل ما يرغبن به ويطلبنه من غال ونفيس دون حسبان لنقص أو تبذير في ثروتي. كل هذه الأفعال لتطمئنّ نفسي وليتمتّعنَ دون خشية من حدث يثير غيرتي ويعيق تفكيري.

ولكن مهما تعاظم حرصي لا ينفع أمام عقاب الربّ، ولا غرابة أن تلحق بالأُسس المتينة العثّة المسوسة ولا تمنعني من أن أتجرّع السمّ الذي صنعتهُ بيدي هذه. أقول لكم حتى لا أترك الكلمات معلقة في حلقي وأنا أرى دهشتكم وقنوطكم، سأختم قولي بجملة لم أكن أتصوّر أنني سأنطقها ذات يوم، لأن كل حذري وحيطتي التي رعيتها تهاوت فجر هذا اليوم حيث شاهدت هذه (وأشار إلى زوجته) بأحضان شاب مختبئ هذه اللحظة في غرفة هذه القهرمانة اللعينة».

وما أن أتم كاريثالس جملته الأخيرة حتى شعرت ليونورا بضربة حادة في قلبها وسقطت مغشياً عليها عند قدمَي زوجها نفسه. شحب

وجه ماريا ألونسو، ووجد والدا ليونورا نفسيهما دون حرف واحد بعد أن نشف بلعوماهما وكأن أنشوطة قد عقدته.

لكن كاريثالس لم يتوقّف واستمر بخطابه:

«الانتقام الذي أنوي يتجاوز كل مألوف ولم يخطر على بال أحد قبل اليوم، ذلك أنني الوحيد الملوم به وأتحمل القسط الأكبر منه بسبب من مسلكي المتزمّت بما يتناقض وخبرة سنواتي التي فاقت الثمانين إزاء سنوات عمر هذه الصبية الخمس عشرة الغضّة. لقد كنتُ مثل دودة القزّ وهي تصنع قبر نهايتها. لذا لا أحمّلك أي ذنب يا صغيرتي التي غُرّر بها».

وبقوله هذا انحنى فوق ليونورا المغمي عليها وقبّلها على جبينها: «لا أُحملك أي ذنب لأن سنوات عمرك الغضّة لا تقوى أمام مبررات عجوز مكّار أو غزل شاب مستعر. لذا أرجو أن أقدّم لها وأنا في رمقي الأخير ما يجعل منه عبرة لمن لا يعتبر وما لم يخطر على بال أحد، أو على الأقل أن يجدوا فيه مثالاً يُحتذى. لهذا أرجوكما أن تستدعيا كاتب عدل لأقومَ بتحرير وصيّة جديدة أضاعف فيها مهر ليونورا والتي سأرجوها بعد أن أرحل عن عالمنا هذا، والذي أظنه قريباً، أن ترضخ لمطلبي وتتزوج بالشاب الغادر ذلك لعلّه يقدم لها ما لم تجده رفقة العجوز المفجوع. ولو قُدّر لي العيش بعدها، فلن أنقض وعدي

وسأتمنّى لهما السعادة من كل جوارحي، وبقية ثروتي سأتبرّع بها لأعمال الخير، أما أنتما يا صهريّ العزيزين، فسأوصي لكما بما يكفيكما العيش الكريم ما تبقّى لكما من عمر. ليأتِ الكاتب العدل لأنني أظن أن خطوات حياتي على وشك التوقف».

بقوله هذا داهمته إغماءه شديدة أخرى طرحته إلى جوار زوجته. فاجتمع وجهاهما من جديد!

يا لغرابة وحزن المشهد على الأبوين وهما يرمقان ابنتهما وصهرهما!

أما القهرمانة الخبيثة فلم تنتظر توبيخ الأبوين، لذا خرجت فوراً من المخدع ومضت لترى لوايسا ولتخبره بكل ما جرى. ثم نصحته أن يخرج هارباً وستبقى على تواصل معه من خلال الزنجيّ لتخبره بالمستجدات خاصة وأن لا أبواب توصد أمامه بعد اليوم. أندهش لوايسا مما استجد وعمل بنصيحتها، إذ ارتدى ملابسه كشحاذ فقير ومضى حالاً للقاء أصحابه ليحدّثهم عن غرابة واستحالة حدوث شيء مشابه عن أقدار الحب.

عندما كانا لا يزالان في إغماءتيهما، أرسل والد ليونورا بطلب كاتب عدل صديق له والذي حضر بسرعة ووجد الزوجين وقد فاقا وصحيا. وكان أن أملى كاريثالس وصيته الجديدة حسب ما قاله دون أن يشير لخيانة ليونورا، لكنه طلب منها سراً أن تتزوّج بالشاب في حال موته،

لكن ذلك لم يُدوّن في الوصية احتراماً لذكراه. ما أن سمعته يقول لها تلك الكلمات حتى جثت على قدميه بقلبٍ ينتفضُ من الحزن وقالت له:

«لتحيا ما تشاء من السنين يا سيدي وزوجي، ورغم أنك لست مضطراً لتصديقي أقول لك إنني لم أخنك أو أخدعك بشيء ولم يدر بخلدي ذلك قَط».

وعندما رغبت بالاعتذار وقصّ ما جرى معها، لم يطاوعها لسانها وسقطت مغشياً عليها من جديد. عانقها العجوز وكذلك أبواها وشرع الجميع في بكاء حارّ طال من شرارته كاتب العدل الذي شاركهما النحيب هو الآخر.

أما ما بقي من الوصية فهو أنه ترك للخادمات ما يساعدهنّ على العيش، وأمر بعتق الجواري والزنجيّ، ولم يأمر للقهرمانة المزيّفة سوى براتبها المعتاد.

أما كاريثالس فقد شدّت الآلام عليه وحملوه إلى قبره بعد سبعين يوماً من تلك الحادثة.

وليونورا الأرملة الغنية الباكية، وقد انتظر لوايسا أن تنفذ ما جاء بالوصية، فقد قامت بعد أسبوع واحد من وفاة زوجها بالدخول في

أحد أديرة الراهبات الأكثر انعزالا في كل المدينة. ولشدة غيضه، رحل لوايسا إلى العالم الجديد ليجرب حظوظه. بقي والدا ليونورا في حالة حزن رغم أنهما وجدا العزاء بما تركه لهما صهرهما من أموال. كذلك تمتعت الخادمات بالراتب المفروض لهن وابتهجت الجواري والزنجيّ بحريتهم. أما القهرمانة الخبيثة فخرجت صفر اليدين تندب حظها على ما فعلت من سوء.

أما أنا فقد بقيت لي رغبة الوصول إلى نهاية هذه الحدث:

مثال ومرآة لما علينا أن نمقته من ثقة بالمفاتيح والصناديق وكل ما يحدّ من الإرادة الحرّة، على الأقلّ علينا أن نثق بمردود أعمارنا الخضر الوارفة وألّا نجري خلف الشائع من أسرار وألوان وتراكيب. الشيء الوحيد الذي لم يقنعني حتى الآن هو لماذا لم تستطيع ليونورا الدفاع عن نفسها طوال هذا الوقت كي تشرح لزوجها أنها لم تدنّس شرفه وخرجت من محنتها تلك عفيفة طاهرة. لعل لسانها لم يساندها في إنجاز ما كان ضرورياً لتبرئتها قبل أن يغادر عالمنا زوجها الغيور.

مختصر حياة وأعمال ميغيل دي ثربانتس سايدرا

١٥٤٧ ولادته في قلعة إيناريس (قلعة عبدالسلام عند العرب)، من عائلة مشكوك بأصولها المسيحية، أغلب الظن من عائلة يهودية متنصّرة، وإن كانت العائلة وثربانتس نفسه يرفضون رفضاً قاطعاً كل الحجج والبراهين على ذلك.

١٥٥٢ تنتقل عائلته حتى بلد الوليد وراء حظوظ أشغال الأب، وهو الذي يمتهن أوضع مهن الطبابة آنذاك كحجّام ومداوٍ.

١٥٦٦ بعد حياة فقر مريرة تعود العائلة إلى مدريد لتستقر فيها نهائياً، أملاً بحياة أفضل.

١٥٦٨ يداوم في أوقات فراغه على التعليم المجاني. على الرغم من أن ثربانتس لا يحظى بتعليم جامعي، إلا أنه يُعتبر من تلاميذ عالم الإنسانيات المعروف لوبث دي أويوس.

١٥٦٩ ينشر أشعاره الأولى في أنطولوجيا شعرية بإشراف أويوس نفسه. لا يجد منفعة في الشعر ولا يجد عملاً مناسباً، فيلتحق جندياً في فصيل ميغيل مونكادا. وكان قبل ذلك شقيق له أكبر منه قد التحق في الأسطول الإسباني الحربي.

١٥٧٠ يشارك في معركة (ليبانته) المعروفة والتي ينتصر فيها الأسطول

الإسباني على الأتراك. يُجرح ثربانتس في المعركة وتُصاب ذراعه اليسرى بجراح بالغة تصيب فيها اليد بالشلل وإن لم تُقطع عن جسده. من هنا سيسمى بالأقطع (الأكتع).

١٥٧٥ بعد أربعة أعوام يمضيها في معسكر حربي في نابولي، يترجى العودة إلى إسبانيا ويوافق على رجائه. بل يتحصل على رسائل تزكية من أعلى المراتب تقديراً لتفانيه وخدمته. يقع أسيراً هو ومن معه بيد القراصنة الأتراك والجزائريين.

١٥٨٠ بعد خمسة أعوام أسيراً لدى حكام (دايات) الجزائر، يطلق سراحه ويرجع إلى بلده إسبانيا، بعد أن تجمع عائلته فديته مع مساعدة جمعيات إنسانية أخرى. هذه الأعوام الخمسة التي أمضاها في مدن الجزائر الساحلية ستكون مؤثراً كبيراً على شخصيته وأعماله الأدبية.

١٥٨٤ يقوم بعرض أعماله المتعلقة بتجربته في الجزائر مثل (معاهدات الجزائر) و(حمامات الجزائر). ينشر كذلك عمله الأدبي الناضج (نومانثيا). ويتزوج بكاتالينا سالاثار.

١٨٨٥ ينشر عمله الرعوي المعروف (غالاتيا)، ويكتب أعمالاً كوميدية مستوحاة من حياة الأتراك والمسلمين مثل (معاهدة قسطنطينية) أو (موت سليم) اللتين فُقدتا ولا يُعلم عنهما شيء.

١٥٨٧ يُعيّن عضواً في الحلقة الأدبية المدريدية بعد نجاحه بإثبات نفسه ككاتب. يحصل على عمل كجابي ضرائب رسمي. وهو العمل الوحيد الذي سيحصل منه على مورد نوعاً ما ثابت، ولكنه سيودي به إلى السجن بسبب وشايات عن أعمال مريبة ونقص في التحصيلات. سيمضي فترة في السجن ليطلق سراحه ويبرأ من التهم الموجهة له.

١٦٠٥ يظهر في مدريد الجزء الأول من رائعته الروائية (الفارس النبيل دون كيخوته دي لا مانشا). الجزء الثاني من الرواية سينتظر النشر حتى عام ١٦١٥ وهو عام ظهور أول طبعة منه. الرواية تطبع عشرات الطبعات وتترجم وتضع ثربانتس في المراتب الأدبية الأولى في الآداب الإسبانية والأوربية.

١٦١٣ ينشر عمله المعروف (روايات مثالية) وهي ١٢ رواية قصيرة.

١٦١٤ ينشر عمله الروائي الشعري (رحلة إلى بارناسو).

١٦١٥ يقوم بجمع ونشر أعماله المسرحية الكوميدية الطويلة والقصيرة منها.

١٦١٦ يموت فقيراً في مدريد ويدفن في دير وكنيسة الراهبات ترينارياس دسكالثاس وسط العاصمة القديمة.

نبذة عن المترجم

الدكتور عبدالهادي سعدون (بغداد ١٩٦٨). مقيم في إسبانيا منذ عام ١٩٩٣. كاتب وأكاديمي ومترجم وناشر. أستاذ مادة اللغة والأدب العربي في جامعة مدريد. دكتوراه في الآداب والفلسفة من جامعة مدريد. حاز عام ٢٠٠٩ على جائزة الإبداع الأدبي (جائزة أنطونيو ماتشادو العالمية في إسبانيا) عن كتابه الشعري (دائماً)، جائزة مدينة سلمنكا عام ٢٠١٦ عن مجمل أعماله الأدبية، وجائزة صندوق الشعر العالمي في مدريد ٢٠١٦. كما سبق وحاز على جائزتين عربيتين في قصة الأطفال ورواية الخيال العلمي. كمترجم نقل من الإسبانية إلى العربية أكثر من ثلاثين كتاباً لأهم أدباء إسبانيا وأميركا اللاتينية مثل ثربانتس، بورخس، أنطونيو ماتشادو، رامون خمينث، لوركا، آلبرتي وغيرهم. كما نقل من العربية للإسبانية ثلاث أنطولوجيات شعرية عربية معاصرة في الأعوام ٢٠٠٣، ٢٠٠٦ و٢٠٠٨. من بين كتبه الأدبية: اليوم يرتدي بدلة ملطخة بالأحمر ١٩٩٦، تأطير الضحك ١٩٩٨، انتحالات عائلة ٢٠٠٢، عصفور الفم ٢٠٠٦، حقول الغريب ٢٠١٠، مذكرات كلب عراقي ٢٠١٢، توستالا ٢٠١٤، وتقرير عن السرقة ٢٠٢٠.

(1) إقليم مقاطعة في غرب إسبانيا.

(2) الفلاندس: الفلاندرز أو الفلامندي، وهي اليوم من ضمن حدود بلجيكا، وكانت وقتها ضمن بقاع الأراضي الواطئة.

(3) يذكر المؤلف (القارة الهندية أو أرض الهنديات) وهو الاسم الذي أُطلق على أميركا آنذاك، معتقدين أنها الهند.

(4) ما لا يخفى على القارئ تهكم ونقد ثربانتس لأمور كتب عنها الكثير من مفاسد وجرائم وتسلط باسم الملك والكنيسة.

(5) الأرض الصلبة (اليابسة): اسم أطلقه الإسبان على غوايانا وجزر الأنتيل بالقرب من قرطاجنة.

(6) ما يعرف اليوم بالأطلسي.

(7) من أشهر موانئ المدن الكولومبية في العالم الجديد.

(8) مبلغ كبير في زمنه، والعملة المعدنية المختومة تشير لكونها عملة قانونية مسكوكة وموثوق بها.

(9) الزيجات في ذلك الوقت (وحتما إلى اليوم في بعض البلدان) كانت تتمّ بيُسر لمن لهن مهر وإرث عائليّين يسهّل الاقتران بهن.

(10) شبيه بالصناديق الدائرية لأديرة الراهبات والغرض منه لإخراج الأشياء وإدخالها دون أن يتقابلن بأحد والحفاظ على سرية عزلتهن. لوح قرصي دوّار يشبه لوح الفخّارين يحتوي على عوارض داخل غرفة خشبية ببابين، أحدهما للخارج وأخرى للداخل. بالضبط مثل الأبواب الزجاجية الدوّارة في المراكز التجارية الكبرى.

(11) هنا يشير ثربانتس بشكل شحيح لممارسة طالت القرون الوسطى حتى العصر الحديث من آثار الحروب والسبي، والعبيد والجواري هنا من كل صنف ولون وجنس.

(12) أغنية موريسكية شهيرة كتب كلماتها الشاعر والمسرحي (لوبي دي فيغا).

(13) أغنية من التراث الإسباني.

(14) أغنية موريسكية أخرى.

(15) ابن سراج وحبيبته شريفة حكاية موريسكية معروفة على شكل رواية قصيرة أو على هيئة أشعار مطولة مجهولة المؤلف ولكنها تنقلت من عصر إلى آخر ودائماً ما يضرب المثل على الوفاء بالكلمة والحب بحكاية ابن دراج. أما المتصوف تيمون باي (ابن تيمون أو تيمور) فقد ورد الاسم محرفاً في نص ثربانتس ولا أحد يعرف هل كان هناك متصوف فعلاً بذلك الاسم أم من تخريجات ثربانتس نفسه. ربما يكون تومان بك (المتوفى 1517)، آخر المماليك في مصر، يعرف بشجاعته ونهايته المأساوية.

(16) الكاهن يوحنا أو ما يسمى بخوان دي إندياس شخصية أسطورية أوربية من القرون الوسطى، كتب فيها وعنها العديد من الأساطير والحكايات والخرافات.

(17) القفل هنا ليس بالقفل العادي وإنّما قفل الباب الخشبي المثبت بمسامير.

(18) يشبّهه بأورفيوس، إله الموسيقى في الأساطير الإغريقية، والتي تعلّمها عن أبيه أبولو.

(19) نمط من الغناء المرافق للغيتار يبدأ بهذه العبارة البادئة، ظهر في تلك الفترة.

(20) موسيقى ورقصة شعبية أوربية ظهرت مع بدايات القرن السادس عشر.

(21) تصرف من عندنا بإدراج المثل العربي في إشارة إلى جهله تماماً بالموسيقى.

(22) آبشالوم: من شخصيات العهد القديم، أحد أبناء داوود وعرف بجماله الخارق وقد أشير له في أكثر من 14 فقرة من النصوص التوراتية.

(23) متوشالخ: من شخصيات العهد القديم ابن إدريس وجدّ نوح، ويقال إنه عمّر حتى 969 سنة.

(24) الكلاب الملكية الفرنسية تكون مدرّبة على الرقص والوثب.

(25) تقبيل بفم متسخ دليل تواضع المؤمن، وقد يحمل معنى مغايراً لو جاء على

لسان أزعر نصاب.

(26) بوق معوج يستخدم للتنبيه وفي الاستعراضات العسكرية وله أسماء متعددة منها ما كان يسمى بالبوق البارسي زمن ثربانتس.

(27) حرفياً يقول ثربانتس من فتحة مرور القطط أو الثقوب المعمولة لمرور القطط.

(28) حرفياً (نومة الميت).

(29) خلطة غريبة من الحلفان لأزعر وما يجيء على باله من مسميات وتعابير قادرة على تشتيت أفكار السذج.

(30) كابرا من مقاطعات مدينة قرطبة ولفظها العرب (قَبرة).


ثربانتس
العجوز الغيور